الفصل الثانى

النظـريات العضوية والبنائية الوظيفية

أولاً: النظريات العضوية

- الظروف الاجتماعية.

طبيعى
- كومت.
- سبنسر.

نسقى
- دوركيم.
- تونيز.

ثانياً: البنائية الوظيفية

- الظروف الاجتماعية.

طبيعى
- باسونز.
- بكلى.

- تریاكيان. نسقى

obeikan.com

النظـريات العضـوية

الظروف الاجتماعية

فى حديثنا السابق اعتبرنا النظرية الاجتماعـية رد فعل جماعة معينة لما شعروا به من مشاكل اجـتماعية فى عـصرهم. وفى حالة النظرية العضـوية جاء التنظير من جماعـة من أذكياء الطبقـة العليا الذين تثقفـوا فى ظل تقاليد فلسفة عـصر التنوير والذين كانوا يعبرون عن استجابتهم للمـضمون الاجتماعى الذى كابد وطأة الثورة السياسية والنمو الصناعى.

وانطلاقًا مما بين أيدى هذه الجـماعة من معارف سـابقة هى عبارة عن مـا قدمه أصحاب النظرية الـطبيعية وأصـحاب المذهب العقلى من افتـراضات، عمل هؤلاء المفكرون على إنشاء نظرة للمجتمع تركز على أن حـاجات النسق تعمل وظيفيّاً فى ظل القوانين الطبيعيـة، فتجعل من المجتمع نسقًا يتكون من أجزاء مـترابطة وظيفيا من خلال تقسـيم العمل أو بناء الأدوار Role structure وطبقًا لهـذه النظرة يظهر المجتمع كنسق عضوى وظيفى، وجزء من ذلك الكل ألا وهو النظام الطبيعى، وأن هذا النسق العضوى يتطور فى استجابة لحاجاته الأساسية.

وكانت الكتابات تركـز على إما: البناء المكيانيكى Mechanical structure لهذا النسق العضوى الاجتماعى -كما عند سبنسر وكونت- أو على نمط النسق المعيارى Normative system والذى يعـتمـد على تقـسـيم العمل فى داخـله -كمـا عند دوركيم- وفى كل من الحالتين نظروا إلى المجتمع كنسق عـضوى متكامل وظيفيا، وفى نفس الوقت هو جـزء من النظام الطبـيـعى ويعـمل من خلال نسـق تقسـيم العمل.

هذا النمـوذج نسقى فى نظرته إذ اعـتبـرت المجتـمع نسق طبيـعى ونظرت إلى حاجات المجتمع الـطبيعية على أنها رئيسيـة وأعظم من غيرها، ومن ثَمَّ فهى نظرة محافظة فى أيديولوجيـتها إذ أنها تتطلب من الفرد أن يتكيف لهذه الحـاجات أكثر من العكس أى تكييف الحاجات للفرد. واضح أن هذه النظـرة محاولة من مجتمع

obeikan.com

المثقفين فى ذلك الوقت للتعامل مع الاضطرابات السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى عصرهم.

وعادة تظهر هذه النتائج النسقية فى مثل هذه الظروف، وخاصة بين عدد من الصفوة وتصبح الوظيفة الأساسية لعلم الاجتماع فى مثل ذلك الموقف هى اكتشاف القوانين الهامة للنظام الاجتماعى، وذلك حتى يتمكن فهمها بشكل أحسن، ومن ثَمَّ يمكن ضبطها بأسلوب أكثر كفاءة.

وهكذا يمكن تلخيص الظروف الاجتماعية لظهور النظرية العضوية كالآتى:

١- الظروف الاجتماعية، الثورة السياسية، الانهيار الاجتماعى، النمو الصناعى.

٢- حالة المعرفة: المذهب الطبيعى- المذهب العقلى- فكرة التطور الاجتماعى- الوضعية.

٣- الظروف الحياتية: من الشريحة العليا الاقتصادية الاجتماعية - ثقافة عصر التنوير- جامعيون.

***

obeikan.com

أوجست كونت AUGUSTE COMTE

(١٨٥٧ - ١٧٩٨)

ولد أوجست كونت فى فـرنسا سنة ١٧٩٨ من أسرة كاثوليكيـة موسرة، وتعلم الطب والفسيولوجيا فى مدرسة البوليتكنيك وهى من مدارس الطبقة الأرستقراطية، ومؤخرًا تعلم الفلسفـة الوضعية، وتعلم فى ظل تقاليد فلسفـة عصر التنوير، ولقد مارس السـياسة عـقب انهيـار الثورة الفرنسـية السـابقة (١٧٩٣)، وعاصـر الثورة الصناعيـة. وتزايد الصراع بين العلم والدين. وتتـضمن أعماله الرئيـسية الفلسـفة الوضعـية Cours de Philosophie Posotive (١٨٣٠) ونظرة عامـة عن الوضعـية (١٨٤٨)، واشتهر أوجست كونت بأنه هو الذى أعطى علم الاجتماع اسمه، ومن ثَمَّ يعتبر أوجست كونت مؤسس علم الاجتماع فى العصر الحديث[١].

أهدافه:

من الظروف الاجتماعـية والظروف الحياتية التى عاشـها أوجست كونت يمكن فهم أن الهـدف الرئيسى لعلم الاجتـماع عنده هو إقصـاء البناء الثورى للمجـتمع الحديث، بمعنى منع الاضطراب الأخلاقى الذى أحدثته الثورة الـفرنسية. فقد كان أوجست كونت مهتمّاً بإعادة تنظيم المجتمع طبقًا لفلسفته الوضعية الإنسانية.

وطالما كان يعتـقد كونت أن أساس المجتـمع فى أفكاره الأساسية فـقد كان كل همه أن يؤسـس علم اجتمـاع يعمل على تأسـيس هذه الأفكار التى سـوف تقوى النظام الاجتماعى عن طريق تقوية النظام الأخلاقى. وتـبعًا لذلك فقد حاول إنشاء نوع من علم الطبيـعة الاجتمـاعية Social Physic والذى أسمـاه فيمـا بعد بعلم الاجتماع Sociologg وهذا العلم سوف يعـمل على تأسيس قوانيـن اجتماعـية، وكذلك إعادة تنظيم المجتمع فى توافق مع نسق القيم الذى اعتقد كونت أنه أحسن القيم وأكثـرها ملاءمة للطبيعـة الإنسانية. ويفصح كونت عن هذه القـيم فى كتابه

(١) دكتور مصطفى الخشاب: «أوجست كونت» -لجنة البيان العربى- القاهرة- ١٩٥٠.

(السياسة الوضعية)، فقد اعتقد أن القيم الهامة هى قيم المذهب الفيدرالى والتمثيل الوظيفى والنزعة الإقليمية والنزعة المحلية، واعتبر أن هذه القيم هى أسس نجاح المذهب الوضعى الجديد.

وهكذا حاول كونت استخدام مبادئ فلسفة عصر التنوير لحل مشاكل الثورة فى عصره مما نتج عنه نظرية عن التطور الاجتماعى التى أبرزت الأهمية الرئيسية للعقل الإنسانى والقيم الاجتماعية السائدة. ولقد كان يأمل أنه باستخدام العلم الجديد (علم الاجتماع) أنه يستطيع إعادة تأسيس نظام أخلاقى جديد فى مقابل الفوضى الاجتماعية الضاربة أطنابها حوله.

الافتراضات:

كان كونت يعتقد أن العالم تنظمه قوانين طبيعية غير مرئية، وهى التى تقبع وراء تطور ونمو العقل والقيم الاجتماعية السائدة. (ويفهم من ذلك أن كونت اتخذ من الإنسانية موضوعًا للدراسة والبحث واستعرض تاريخها واستنبط منه قانونًا فى الأدوار الثلاثة، ويفهم أيضًا أن كونت أسس هذا القانون على طبيعة العقل الإنسانى وخضوع هذه الطبيعة لمبدأ الحركة والتطور)[1]. فالمبدأ الفلسفى لعلم الاجتماع هو أن الظواهر الاجتماعية تخضع للقوانين الطبيعية.

ولقد ظهر علم الاجتماع إلى الوجود يوم أن اكتشف كونت قانون الأطوار الثلاثة وهو أن البشرية قد مرت بثلاث مراحل أو أطوار من التفكير، المرحلة الأولى هى المرحلة التيولوجية أو اللاهوتية وفى هذه المرحلة كانت البشرية تفسر كل من الظواهر الطبيعية والاجتماعية تفسيرًا دينيّاً، ثم انتقلت البشرية إلى المرحلة الثانية وهى المرحلة الميتافيزيقية حيث كانت البشرية تفسر الظواهر تفسيرًا ميتافيزيقيا، ثم تقدمت البشرية إلى المرحلة الثالثة وهى الوضعية أو العلمية حيث تفسر البشرية الظواهر تفسيرًا علميّاً. فقد كشف هذا القانون عن حالات التفكير الثلاثة، بل اعتبر كونت أن اكتشاف هذا القانون هو الذى أوحى إليه بفكرة وضع علم جديد يدرس الظواهر الاجتماعية. فلم يعد علم الطبيعة الاجتماعية مجرد تصورات ومبادئ فلسفية بل أصبح علمًا وضعيّاً كباقى العلوم.

(١) دكتور مصطفى الخشاب: «أوجست كونت» لجنة البيان العربى- القاهرة ١٩٥٣م.

واعتبر كونت أن التمييز بين الـظروف الاستاتيكية والديناميكية للموضوع يجب أن تمتد إلى علم الاجتماع، فيقول (ولسـوف أتعامل مع شروط الوجود الاجتماعى كما فى البيولوجى سأعامل التنظيم ordanization تحت عنوان التشريح anatomy، وكذلك بالنسـبة لقوانين الحركـة الاجتماعـية كما فى البـيولوجى تحت عنوان علم وظائف الأعضاء Physiology.

هذا التـقسـيم هو ضـرورى من أجل أغراض الشـرح فـقط، ولا يجب أن يمتـد استخدام هذا التقسيم وراء هذا الغرض. وكما رأينا فى البيولوجى أصبح ذلك التمييز والتقسيم أكثر ضعفًـا ووهنا بتقدم العلم، فهل سوف نرى ذلك عندما يتم تكوين علم الطبيعة الاجتماعية، ذلك الـتقسيم سوف يبقى من أجل أغراض التحليل، ولكن ليس كانفصال أو تقسيم حقيقى وفعلى للعلم إلى جـزئين. فهذا التمييز هو ليس بين فئتين من الحقائق أو الوقائع، ولكن بين وجهين أو ناحيتين من نواحى النظرية.

وهكذا قسم كونت علم الطبيعة الاجتماعـية إلى قسمين: قسم الاستاتيك سوسيال، وقسم الديناميك سـوسيال[1]. والأول موضوع دراستـه العناصر الاجتماعيـة ووظائفها وذلك للكشف عن القـوانين التى تحكم التـرابط بين النظم الاجتـماعـية. والدينامـيك سوسيال موضوعه دراسة قوانين الحركة الاجتمـاعية والسير الآلى للمجتمعات الإنسانية والكشف عن مدى التقدم الذى تخطوه الإنسانية فى تطورها، أى أن الدراسة الديناميكية تقوم على أساس فكرة التقدم، وتقوم الدراسة الاستاتيكية على أساس فكرة النظام.

ومن ثَمَّ يتضح أن هذا التقسيم هو من أجل إبراز مفهومى النظام Order والتقدم Progress. واعـتبـر كونت أن النـظام يتوقف على الانـسجـام الدائم بين ظروف الوجود الاجـتمـاعى، أما التقـدم فيـتوقف على التطور الاجـتماعـى، فالظروف الاجتماعية، من ناحية، وقوانين الحركة من ناحية أخرى يشكلان استاتيك ديناميك علم الطبيعـة الاجتماعية، ومن ثَمَّ يصـبح غرض وهدف علم الطبيعة الاجتـماعية (علم الاجتماع) هو دراسة وضعية لقوانين النظام والتقدم. وكلما تقدمنا فى دراسة ظروف المجتمع الإنسانى (قوانين النظام)، كلما زادت قدرتنا على التنظيم والتقدم، وأيضًا كلما زادت روح الفلسفة الوضعية ظهورًا.

(١) دكتور مصطفى الخشاب: «أوجست كونت» لجنة البيان العربى- القاهرة ١٩٥٣م ص ٦٨.

باختصار تدرس الديناميكية الاجتماعية قوانين التتابع، بينما الاستاتيكية الاجتماعية تدرس الوجود، ومن ثَمَّ فإن فائدة الأول هى أن يجهز النظرية الحقيقية للتقدم إلى الممارسات السياسية، بينما الثانى ينجز نفس الخدمة بالنسبة للنظام، وهذا التلاؤم والتوافق لحاجات المجتمع الحديث هو التأكيد القوى للصفات الفلسفية لمثل هذه التوليفة.

الدراسة الاستاتيكية:

الدراسة الإحصائية تعتمد على استقصاء قوانين الفعل ورد الفعل لمختلف أجزاء النسق الاجتماعى- بعيدًا عن الحركة الأساسية التى تعمل دائمًا على تعديل تلك القوانين.

المبدأ العلمى عن العلاقة بين النظام السياسى والظروف الاجتماعية هو ببساطة أنه لابد أن يكون هناك دائمًا انسجام تلقائى بين الكل وأجزاء النسق الاجتماعى، هذه العناصر التى بالضرورة سوف تأتلف عاجلاً أو آجلاً فى أسلوب متلائم مع طبيعتها.

من الواضح أنه لابد للنظم السياسية والأحوال الاجتماعية من ناحية، والأشكال والأفكار الاجتماعية أن تكون دائمًا مترابطة، ولكن أكثر من ذلك لابد لهذا الكل المتماسك أن يكون دائمًا ملتحمًا مع حالة من التطور متناسبة مع درجة تطوره نحو اكتمال التطور الإنسانى، منسحبًا ذلك فى كل الوجوه- المعرفة والأخلاق، والنشاط الطبيعى. ومن ثَمَّ يصبح الموضوع الرئيسى لأى نسق سياسى، أيا كان زمنى أو روحى هو أن ينظم ويرتب التمدد التلقائى الذى يحدث للمجتمع فى كل الوجوه، بأحسن أسلوب يؤدى إلى قيادة النسق نحو أهدافه المحددة.

فكرة الترابطات المتبادلة أصبحت من وجهة النظر العلمية فكرة أساسية. ولكن تصبح أكثر وضوحًا كلما كان العضو organism أكثر تركيبًا، وكلما كانت الظاهرة موضع البحث أكثر تعقيدًا، فمثلاً عند الحيوانات، الترابطات المتبادلة بين أعضاء العضو أكثر تكاملاً منها فى النبات، بينما فى الإنسان أكثر من الحيوانات، ومن ثَمَّ

فهـذه الفكرة لابد أن تزداد رسـوخًا علمـيّاً فى علم الطبـيعـة الاجتـماعيـة (علم الاجتماع)، وحتى أكثر مما هى عليه فى البيولوجى.

وينبع من ذلك أنه لا يمكـن أن توجد دراسـة علميـة عن المجـتمع سـواء عن ظروف التجـمع (استاتيك) أو حركـته (ديناميك)، إذا قسم المجـتمع -أى النسق- إلى أجزاء، وتدرس تلك الأقسام كل قسم بعيدًا عن الآخر.

ويلاحظ أن التـقسـيم المنهجى للدراسـات التى توجـد فى العلوم غيـر العضـوية (الجمادات) inorganic، هى غير صـالحة إطلاقًا فى علم المجتـمع الحديث والمركب ولا تؤدى إلى أى نتيجة... ولقد يأتى اليوم الذى فـيه يكون مرغوبًا فى تقسيم فرعى من أجل الدراسة العلمية، ولكنه من المستحيل لنا الآن أن نتنبأ أى مبدأ سوف يتم على أساسه هذا التقسيم، لأن هذا المبدأ نفسه لابد أن ينشأ وينبعث من نمو العلم نفسه.

فى العلوم غير العضوية تكون العناصر معروفة لنا أحسن من الكل الذى تكونه تلك العناصـر، ولهذا فى مـثل تلك الحالة أحـسن لنا أن نتقـدم من البسـيط إلى المركب، ولكن الطريقة العكسـية ضرورية فى دراسة الإنسان والمجتـمع، فالإنسان والمجتمع ككائنات كليـة معروفة أكثر لنا، وكذلك أسـهل فى الدراسة من الأجزاء التى يتكون منها المجتمع أو الإنسان.

الدراسة الديناميكية:

ولو أن النظرة الاسـتاتيكيـة للمجـتمع هى أساس عـلم الاجتمـاع إلا أن النظرة الديناميكية ليست فقط الأكثر أهمية من الاثنين، ولكن أيضًا الأكثر أثرًا فى خواصها الفلسفـية، وخاصة تلـك الفكرة السائدة عن التقـدم المستمر للإنسـان، أو بالأحرى النمو التدريجى للإنسانية.

إذا كنا نكتب بحثًا منهـجيّاً عن الفلسفة السياسـية، لسوف يكون من الضرورى إعطاء تحليل أولـى عن دوافع الفـرد التى تشكل قـوى التـقـدم للنوع الإنسـانى، بإرجاعها إلى تلك الغريزة التى تنتج عن اتفاق واتحـاد كل ميولنا الطبيعية، والتى تحث الإنسان على تنميـة كل حياته الفيزيقيـة والأخلاقية والعقلية بأكـبر قدر وإلى أبعد ما يمكن أن تسمح له ظروفه.

ولكن هذه الفكرة عرفهـا كل فلاسفة عصر التنوير، ولهذا عـلينا أن نتقدم فوراً إلى اعتـبار أن التتـابع المستمـر للنمو الإنسانى، الملاحـظ فى كل هذا النوع وكأن الإنسـانيـة كـانت واحـدة، ومن أجل مـزيد من الإيضـاح يمكن أن نأخـذ رأى كوندرسيه Condorcet عن اقتراحة أن أمة واحـدة التى يمكن أن نرجع إليها تتابع التحسـينات الاجتماعـية. هذا التصور العـقلى قريب من الحقـيقة أكثر ممـا اعتدنا افتراضـه، لأن من وجهة نظر سـياسية، الحلفـاء الحقيقـيون لمثل هؤلاء الناس هم بالتأكـيد أولئك الذين أخذوا على عـاتقهم ونفذوا مشـاريعهم البدائيـة، أيا كانت التربة التى يسكنونها، وأيا كان الجنس الذى انبعثوا منه.

وباختصار إنه الاستمرار السياسى الذى رتب التتابع الاجتماعى.

الروح العامة الحـقيقية للديناميـكية الاجتماعـية تتوقف على إدراك كل من هذه الحالات الاجتـماعية المتتـابعة على أنها النتائج الضرورية للحادث قبل والذى هو المحرك الضـرورى للتالى بعده وطبقًـا لبديهية ليـبنتز Lebintz (الحاضر يكبر مع المسـتقبـل). ولهذا يصـبح موضـوع العلم هو اكتـشاف القـوانين التى تحكم هذا الاستمرار، وأيضًا تجميعها لأنه هو الذى يحدد مجرى النمو الإنسانى.

الآن إنه ذلك التراكم البطىء المسـتمر لتلك التـغييرات المـتتابعة والتى تدريجـيّاً كونت الحركة الاجتـماعية، والتى خطواتها قد خطتها الأجيـال، وتغيراتها الأولية عملها التجديد المسـتمر للبالغين. وفى وقت ما عندما مستوى السـرعة لهذا التقدم تبدو لكل الأعين مـلحوظة السرعة، فحـقيقة الحركـة لا يمكن أن تنكر حتى عند أولئك الذين أكثرهم بغضًا لها.

وفى حركـة الإنسانية من الفـترات المبكرة حـتى الآن، سوف نرى أن الخطوات المختلفة والمتلاصقة والمتلاحقة بنظام محدد، وأريد أن أشير إلى النمو العقلى والذى يشكل تمايزًا واضحًا جـداً ولا يحتاج إلى تساؤل ولهـذا يؤخد عادة على أنه دليل ومرشد. الجزء الرئيسى لهذا النمو والأكـثر تأثيراً فى التقدم العام، إنه بلا شك نمو الروح العلميـة من العـمل البـدائى لأولئك الفـلاسفـة أمـثـال طاليس Thales وفيثـاغورس Pythagoras إلـى أولـئك الرجال أمـثـال بخت Bichat ولاجرانج

Lagrange. الآن لا يمكن لرجل متنور أن ينكر ذلك. وفى هذا التتابع الطويل من المجهودات والاكتشافات، قد تبع العقل الإنسانى مجرى محدد، كمية معارف معينة، والمطلوبة تمامًا بحيث تسمح بتنمية مجرى التقدم الملائم لكل فترة.

الترابطات المتبادلة التى بيناها عند الحديث فى الحالة الاستاتيكية قد تساعدنا فى تنمية مفهوم عن وجود القوانين الوضعية فى الديناميكية الاجتماعية، فإن لم تكن الحركة محددة بواسطة تلك القوانين لحدث التدمير الكلى للنسق الاجتماعى.

التقدم:

أما رأيه الخاص فى معنى التقدم فيتلخص فى أن الإنسان لا يمكنه أن يدرك هذا المعنى إلا إذا أدرك على الأقل ثلاثة حدود. وكل حد من هذه الحدود الثلاثة يمثل عهدًا من العهود التاريخية. فالحد الأول يمثل نظام المجتمعات القديمة، والحد الثانى يمثل النظام الاجتماعى فى عهد المسيحية، وعهد الثورة الفرنسية هو الحد الثالث لإدراك معنى التقدم. لأن هذه الثورة أوحت للإنسان بضرورة قيام نظام جديد، وأن الثورة أوحت إلى الإنسان بفكرة التنظيم الاجتماعى الجديد. إلا أن الثورة الفرنسية لم تأت لنا إلا بفكرة ناقصة عن التقدم الاجتماعى، لأنها تجعلنا نتصور فكرة نظام اجتماعى يختلف اختلافًا جوهريّاً عن النظم السابقة، ولكنها لم تنجح فى إقامة هذا النظام، والآن فإن وظيفة الفلسفة الجديدة (الوضعية) هى أن تحقق إقامة هذا النظام وأن تحقق الفكرة الوضعية للتقدم الاجتماعى[1].

ويقيم كونت فكرة التقدم على أساس علمى سليم إذ يعتبر أن المسألة لم تكن مسألة أحكام تقويمية أو مسألة تقديرية للأدوار المتتابعة للتقدم بالنسبة لحالة مثالية خاصة أو ليست المسألة مسألة معيارية، ولكن بكل بساطة تتلخص فى كشف القوانين التى يسير طبقًا لها التقدم الاجتماعى ومعرفة مدى هذا التقدم فى أدواره السابقة.

ورغم أن كونت يقرر فى هذه العبارة أنه ليس هناك حالة مثالية خاصة حتى يقاس إليها التقدم. ويقرر أن المسألة ليست مسألة معيارية، إلا أنه أيضًا يعتقد بفكرة التقدم، ولو كان ذهب إلى أن المسألة تتلخص فى كشف القوانين التى يسير طبقًا

(١) دكتور مصطفى الخشاب- «أوجست كونت» لجنة البيان العربى- القاهرة ١٩٥٣ ص ٩٩.

لها التطـور الإنسانى لكان أقرب إلى الـصواب ولكن يبدو أن كـونت كان يقـصد بالتقدم هو مـدى قدرة العقل البشرى فى التسـلط على القوى الطبيعية وتسـخيرها لمنافعه، وذلك يفصح عنه قانونه فى الأطوار الثلاثة الذى يجعل من الطور الوضعى -أى الذى يسود فيه التفكير العقلى شتى مناحى الحياة- هو التطور المتقدم.

وهو نفسه يـضع سؤالاً يكشف به عن أن التقدم بمعنى التـحسن ليس من علم الاجتـماع فى شىء إذ يقـول: هل انتقـال الإنسانيـة من طور إلى طور يسـتدعى بالضرورة تحـسنًا أو تقدمًا بالمعنى العلمى الصـحيح لهذه الكلمـة؟ ثم يجيب على ذلك بأن علم الاجتماع ليس من شأنه أن يتعرض لمثل هذا الموضوع.

ورغم ذلك فقد تعرض له وناقشه، إلا أنه فى مـناقشته استطاع أن يتخلص من النزعة التقدمية التى كانت تسود فكر فلاسفة التاريخ، وجعل التقدم نسبيا، إذ يقرر أنه ولو أن الظواهر الاجتماعية خاضعة لقوانين حتمية، فإن هذا لا يمنع من إدراك أن هذه القـوانين قابلة للتـغيـر بتدخل الإنسـان فى تكييف ظـروفها. وإذا كـانت الظواهر الاجتماعـية من أكثر أنواع الظواهر تعقيدًا وتغـيرًا، فليس ثمة تناقض فى التسليم بحـقيقـة خضوعهـا لقوانين ثابتـة، وفى التسليم فى الوقت نفسـه بتدخل النشاط الإنسـانى فى مجرى هذه الظواهر. ولهـذا التدخل تأثير فعـال فى تكييف نتائج هذه القوانين.

وهذا يوضح تمامًـا أن كونت يفرق بـين التقدم بمعـنى التحسن المـطلق والاتجاه اللانهائى نحو الكمـال وهو الفكر الذى كان سائدًا عـنـد فلاسـفة التاريخ، وبـيـن ما يقصده كـونت بالتقدم من أنه يخضع لقوانين ثابتـة هى وفق قانون التطور العام الذى صاغه، ومن ناحـية أخرى جعل هذه القوانين قـابلة للتدخل الإنسانى الذى يستطيع أن يغير من سرعتها وليس من القانون ذاته.

وهكذا فقد أبرز كونت أهمية التدخل الإنسانى واقترب بمعنى التقدم من مفهومه العلمى الحديث، كما أن له الفضل فى التأكـيد على أهمية التدخل الإنسانى وهـو مـا يسـمى الآن بالـتـخطيط الاجـتـمـاعى الذى أصـبح الآن مـــلاذ المصلحـين الاجتماعيين.

وأخيـراً حاول كـونت ربط مراحل التقـدم التى مر بهـا الفكر الإنسانى بحـياة الإنسان المادية وبنوعـية الوحدات الاجتـماعية وبالنظام السـائد فى كل مرحلة من المراحل الثلاث. أى عندما كان الفكر البشرى فى المرحلة الدينية أو اللاهوتية، كان الإنسان فى المرحلة العسكرية أو الحربية والوحدة الاجتماعية الأساسية كانت العائلة والنظام الاجتماعى السائد كان على أساس عائلى وهكذا بالنسبة لبقية المراحل كما هو مبين بالجدول التالى[1].

الناحية الفكرية	الناحية المادية	نوعية الوحدة	نوعية النظام
١- الدينية.	العسكرية	العائلة	عائلى
٢- الميتافيزيقية.	التشريعية	الدولة الإنسانية	جمعى
٣- الوضعية.	الصناعية	السلالة	عالمى

البناء:

يذهب كونت إلى أنه يفترض فى كل تحليل اجتماعى ثلاث فئات كل منها أكثر تعقيداً من السابق له، والوجود الاجتماعى يتكون من الفرد والأسرة والمجتمع.

الأسرة: ولكن بما أن كل نسق لابد أن يتـركب من عناصر من نفس طبـيعـته فـالروح العلميـة تمنعنا أن نعتـبـر المجتـمع على أنه يتركب من أفـراد. ومن ثَمَّ فالوحدة الاجتمـاعية الحقيقية هى بالتأكـيد الأسرة، والتى تخفض، إذا كان ذلك ضرورياً، إلى عنصـريها الأوليين اللذين يكونان أساسـها. هذا الاعتبـار يتضمن أكثـر من مجرد الحـقيقـة الفيـزيولوجية. ثم أصـبحت الأسر قـبائل، والقـبائل أصـبحت أمما، حـتى أن النوع الإنسانى بأكـمله يمكن أن يدرك على أنه النمـو التدريجى لأسرة واحدة.

هذه الفكرة الأولية البسيطة تشـير إلى أن الأسرة تمثل النطفة الحقيقـية للصفات المختلفة للعضـو الاجتماعى. مثل هذا المفهـوم يتوسط بين فكرة الفرد والنوع- أى الفرد والمجتمع.

(١) الدكتور أحمد الخشاب: التفكير الاجتماعى -دار المعارف- القاهرة سنة ١٩٧٠ ص ٥٨٥.

obeikan.com

المجتمع: الموضوع الثالث لتحليلنا الاستاتـيكى يذهب بنا إلى اعتبار أن المجتمع يتكون من أسر وليس من أفراد.

السبب الرئيسى لسمو العضو الاجتـماعى على العضو الفردى، هو طبقًا لقانون مؤسس وهو يزداد سمواً كلما زاد تخصص الوظائف المخـتلفة التى يشغلها العضو أكثر وأكثـر تمايزًا، ولكن فى ترابطات متبادلة، حتى أن وحدة الهـدف تصبح أكثر فأكثر ائتلافًا مع اختلاف الوسائل.

ويلاحظ أن هناك مـيل أولى عند كل المجـتمـعات الإنسـانيـة لوجود حكومـة تلقائيـا، هذا الميل يتوافق مع نسق مناظر منغرس فـينا كأفراد. من نزعات خـاصة نحو الأمر عند بعضنا، والطاعة عند البعض الآخر[1].

***

(١) اعتمد فى عرض أفكار أوجست كونت على المرجع الآتى:

Comte, August: "The Positive Philosophy" translated and condensed by Harriet Martineau, London, George Bell and Sons 1895 Vol. II. Book VI, chap. III PP. 218-32 and chap. V. PP. 275, 280-81, 289-98.

obeikan.com

هربرت سبنسر Herbert Spencer

(١٩٠٣ - ١٨٢٠)

سبنسر هو ابن رجل إنجليزى كان يعتبر من المعارضين للسياسة والفكر السائدين فى عصره، وقد تلقى سبنسر دراسة كلاسيكية فى المنزل، وقد عمل كرسام، ثم رئيس تحرير مجلة الاقتصادى The Economist. وكان من المتشيعين للمذهب الفردى. ويعيش تقاليد العصر الفكتورى. وكان سبنسر تحت تأثير الثورة الصناعية والتوسع الاقتصادى ينظر إلى المجتمع من خلال نظرة تطورية دارونية Darwinia-evolutionary. فلقد أخرج فلسفة للتطور كلها من عنده، وكان يعتقد أن مبادئها تطابق العالم الطبيعى ولشئون الحياة، كانت صياغته للتطور أو نظريته للتطور مؤسسة على فكرة التكامل والتفرق، فالأمور تتكامل أولاً، ثم بعد ذلك هناك تفرق للأجزاء المتخصصة للعضو التى تصبح أكثر ملاءمة لواجباتها.

ومن ثَمَّ تعتبر نظريته عضوية تطورية، وتشبه ما ذهب إليه كونت فى تقسيمه المجتمع إلى استاتيك سوسيال وديناميك سوسيال، على ماسنرى.

ومن أعمال سبنسر هى استاتيك سوسيال (١٨٥٠) Social Statics، والمبادئ الأولية (١٨٦٢) First Principles، ودراسة علم الاجتماع (١٨٧٣) The Study of Sociology.

أهدافه: كان اهتمام سبنسر هو تتبع عملية التطور من أول المجتمع إلى آخره تاريخيّاً واجتماعيّاً ، ونظرًا لمعرفته العميقة بالمذهب الدارونى Darwinism كانت تطبيقاته لمبادئ التطور البيولوجى فى دراسة المجتمع شيئًا يدعو إلى الدهشة والعجب. فلقد استخدم المناظرة البيولوجية فى دراسته للمجتمع وتطوره بدقة وبراعة ملفتة للنظر، وأدت نظرته لمثل هذا التطور العضوى للمجتمع إلى مزيد من القدرة على رؤية الترابط بين الفرد والحاجات الاجتماعية.

***

obeikan.com

الافترضات[1]

«فصل ٢١٢» يقول سبنسر إنه حتى نستطيع أن نقرر ما إذا كنا سوف نعتبر المجتمع ذاتية أم لا، وأيضا حتى نستطيع أن نقرر أنه إذا اعتبرنا المجتمع كذات، فإن علينا أن نجعل من المجتمع وحدة لا تشبه أى ذات أخرى، أى أنه غير الذوات الأخرى كلها، ومع ذلك إن مفهومنا عن الموضوع مازال فجا.

أنه يمكن القول أن المجتمع ما هو إلا اسم جمعى لعدد من الأفراد، حاملين الجدل بين المذهب الأسمى nominalism، والمذهب الواقعى realism إلى مجال جديد، فلقد يؤيد الأسمى أنه طالما لايوجد إلا أعضاء النوع، والأنواع تعتبر متفرقة عن بعضها، فمن ثَمَّ ليس لها وجود، ومن ثَمَّ فإن ما يوجد فقط هو وحدات المجتمع، بينما وجود المجتمع أمر فعلى. فإذا أخذنا مستمعى محاضرة كتجمع والذى باختفائه بمجرد انتهاء المحاضرة يثبت لذاته أنه ليس شيئًا ولكن فقط مجرد تجمع لأشخاص، ولقد يجادل الأسمى أن ذلك يشبه المواطنين الذين يكونون أمة، واضح أن هذا يمكن إنكاره بسهولة، ذلك أن ترتيب وقتى فى حالة «مستمعى محاضرة» ولكنه دائم فى الأخرى «المجتمع»، وأن ذلك الاستمرار والدوام للعلاقات بين العناصر هى التى تشكل تفرد ذلك الكل كشىء متمايز عن فرديات أجزائه. فإن تحطم كتلة إلى شظايا تتوقف الكتلة عن أن تكون شىء، بينما بالعكس الأحجار والأخشاب المتفرقة أولاً تصبح الشىء المسمى «منزل» إذا ترابطت بأسلوب معين.

«فصل ٢١٣» فإذا اعتبرنا المجتمع كذات لأنه ولو أنه يتكون من وحدات متفرقة فإنه يوجد تماسك معين فى هذا المجتمع، ولكن الآن إذا اعتبرنا المجتمع كشىء أى نوع من الأشياء نسميه؟ إذ أنه يبدو أنه لايشبهه شىء مما اعتدناه.

إذا كانت العلاقات المستمرة بين أجزائه تجعل منه ذاتًا، ينشأ السؤال ماإذا كانت هذه العلاقات الدائمة بين أجزائه تماثل العلاقات الدائمة بين أجزاء الذوات الأخرى. بين المجتمع وأى شىء آخر، إن التشابه الوحيد الذى يمكن أن يدرك لابد أن يكون من الذى يعزى إلى التوازى فى مبدأ التجمع للعناصر.

---

(١) اعتمد فى هذه الافتراضات على:

Spencer, Herbert: "The Principles of Sociology". D. APPleton and Co. New York 1898, Vol.II Book II, secs 212-17, 270-71, PP. 447-453, 456, 593-597.

فى العالم المحيط بنا يـوجد فئتان كبـيرتان من التجمعـات التى يمكن أن تقارن بينها وبين التجمع الاجتماعى، وهما اللاعضوى inorganic(*).

والعضوى organic. هل الصفات لمجتمع بأى أسلوب مـا تشبه تلك الأجسام غير الحيـة؟ أو أن تلك الصفات تشبه بأسلوب ما تلك الأجـسام الحية؟ أو أن تلك الصفات لا تشبه كليهما؟ السؤال الأول لا يحتاج إلا إلى إجابة سلبية.

ذلك أن المجتمع كل أجزائه حية ولهذا لا يمكن أن يشبه فى صفاته العامة تلك الكائنات غير الحية، السؤال الثانى لايمكن الإجابة عليه بنفس السرعة.

ذلك أن الإجابة عليه هى بالإيجاب. السبب فى أن العلاقات الدائمة بين أجزاء المجتمع تناظر وتتوازى مع العلاقـات الدائمة بين أجزاء جسم حى، ومن ثَمَّ فعلينا الآن أن نعتبر أن المجتمع كائن عضوى organism.

«فصـل ٢١٤» عندما نقـول إن النمو شىء شـائع عن التجـمعـات الاجتـماعـية والتجمعات العضوية، إننا ننفى التجمع عن التجمعات اللاعضوية، ذلك لأن بعضها مثل البللورات تـنمو بشكل مرئى ولكنهـا تتوقف عند حـد، ومع ذلك إذا قارنا بين الأشياء التى نسميها عديمة الحياة،و بين الأجسام الحية والمجتمعات تلك التى تعرض بوضح تكاثرًا وتزايدًا فى الحـجم، حتى أننا نرى بحـق أن ذلك أحد خصـائص كل منهما، كثير من الكائنات الحية تنمو خلال حـياتها، والباقى ينمو خلال فترات معينة من حياتها. ولكن المجتـمعات تنمو عادة باستمرار سواء عـبر الزمن، وعندما تنقسم المجتمعات أو حـتى وقت تمزقها، هنا النمو إذن سمة تماثل بها المجتمـعات نفسها مع العالم العضوى. وتمايز نفسها بقوة بعيدًا عن العالم اللاعضوى.

«فصل ٢١٥» هناك أيضا صفة للأجسام الاجتـماعية مثل الأجسام الحية، ذلك أنهـا عندما تتـزايد فى الحـجم فإنهـا تتـزايد فى البناء Structure. مثل الحـيوان المنخفض «الخلية» لها أجـزاء قليلة متمايزة ولكن عندما تكتسب حجمًـا أكبر تتعدد أجزائها وتتـفرق، إنه كذلك مع المجتمـع، إذ أولاً «المعشر» التباين بين جـماعات وحداتـه يكون غيـر واضح فى العدد والدرجـة. ولكن بتزايد السكان، الـتقسـيم وتقسيـمات فرعيـة يصبح أكثر تعـددًا وأكثر تحددًا، وأبعد من ذلـك، فى المجتمع

(*) اللاعضوى= الجمادات، العضوى= الإنسان والحيوان والنبات.

ككائن عضوى مـثل ما فى الفرد العضوى يتـوقف التفرق فقط عند اكـتمال النمط والذى يبدو ناضجًا، ثم يتقدم نحو الفناء.

ولن أن فى المجتمعات اللاعضوية أيضا كما فى النسق الشمسى Solar System فى كل عضو من أعضـائها هناك فروق بنائية تصاحب التكامـلات، إلا أنها بطيئة وبسيطة جداً حتى أنـه يمكن إهمالها. بينما تضاعف الأجزاء المتـباينة فى الأجسام السياسية المجتمع والأجسام الحـية، عظيم جداً حتى أنه يشكل بوضوح صفة عامة التى تمايزهما من الأجسام اللاعضوية بشدة.

«فصل٢١٦» سوف يعـرف هذا المجتمع أكثر عند مـلاحظة أن تزايد التفرق فى البناء structure يصاحبه تزايد التفرق فى الوظائف Functions. التقسيمات الأولى والثانية والثالثة التى تنشأ فى حيوان نامى لا تتخذ لنفسها التباين سواء الصغير

أو الكبـيـر بدون هدف، إذ أنه فى تواز مـع الاخـتلاف والـتنوع فى أشكالهـا وتراكيبهـا يسير التنوع فى الأفعال التى تنجـزها، فهى تنمو فى أعضاء متـباينة لها واجبات متبـاينة، وهكذا تحدد تدريجيّاً الجهاز الهضمى، ثم يليـه تدريجيّاً الأجهزة الأخرى. أى أن النسق ينقسم إلـى أجزاء لكل منها وظيفة خـاصة تشكل جزءا من الوظيفة العامة وهى حياة العضو.

وهذا ما حدث بالنسبة للمجتمع فالمجتـمع مزود بجهاز للتغذية يتمثل فى هيئاته وطبقـاته المنتجـة، ومزود بدورة دموية تتـمثل فى نظم التـوزيع وطرق المواصلات ومزود بجهاز هضمى وإخراجى يتمثل فى نظم الاسـتهلاك، ومزود بجهاز عصبى يتمثل فى الجهـاز التنظيمى والأداة الحكومية التى تتولى قـيادة المجتمع، وكل هذه الأجهزة نمت تدريجيّاً بنمو المجتمعات بمعنى أن هذا التباين فى البناء كان يتضاعف فى استـجابة لتطور حاجـات المجتمع أى ليـستطيع القيـام بالوظائف الجديدة التى أصبح المجتمع فى حاجة إليها ليستمر فى الوجود والنمو.

«فصل ٢١٧» لماذا فى الجسم السياسى «المجتمع» وفى الجسم الحى تلك الأفعال المتبـاينة للأجزاء المتـباينة ننظـر إليها علـى أنها وظائف! بينمـا لايمكننا النظر إلى الأفعال المتـباينة للأجزاء المتبـاينة فى الجسم اللاعضوى على أنـها وظائف. سوف ندرك الآن أهم صفة عامة فارقة.

التطور يحدث فى كل منهما «العضوى واللاعضوى»، ولا يختلفا ببساطة ولكن الاختلافات حاسمة، اختلافات حتى أن كل يجعل الآخر مستحيل التشابه معه. فأجزاء تجمع لاعضوى متعلقة ببعضها بدرجة أن أحدهما يمكن أن يتغير جداً بدون أن يؤثر فى الباقى. إنه خلافًا لذلك مع أجزاء تجمع عضوى أو تجمع اجتماعى، ففى كل منهما التغيرات فى الأجزاء متبادلة التأثير، والأفعال المتغيرة للأجزاء متبادلة الاعتماد mutually dependent أى متساندة. وأيضا فى كل منهما «العضوى والاجتماعى» هذه التبادلية تتزايد بتقدم التطور.

«فصل ٢٢٣» دعنا الآن نتجه إلى استخلاص الأسباب التى دعتنا للنظر إلى المجتمع على أنه عضوى.

إن المجتمع يباشر نمواً مستمراً، وأثناء نموه تصبح أعضاؤه متباينة، وأنه يعرض تزايدًا فى البناء، وتأخذ الأجراء المتباينة تلقائيّاً على عاتقها مناشط من أنواع متباينة. هذه المناشط ليست بسيطة الاختلاف، ولكن اختلافها ذات تخصص حتى أنه يستحيل أن يعمل أحدهما عمل الآخر.

المساعدات المتبادلة والمتشاركة التى يعطيها كل جزء للآخر تعمل على التساند بين الأجزاء، وتجعل من الأجزاء المتبادلة الاعتماد تعيش كل منها بواسطة الآخر ومن أجله، وهكذا تشكل تجمعًا يتركب من نفس المبدأ كما فى الفرد العضوى individual organism.

«فصل ٢٧٠» لندع الآن المناظرة بين المنظمات الفردية «أى الفرد ككائن عضوى» وبين المنظمات الاجتماعية «المجتمع». لقد استخدمت المناظرة بدقة، ولكن كمعبر «سقالة» لتساعدنى على بناء جسم متماسك من علم اجتماع استقرائى. لنرفع الآن المعابر «السقالات»، فإن الاستقراءات سوف تقف بذاتها.

لقد رأينا أن المجتمعات هى التجمعات التى تنمو: فى مختلف أنماط المجتمعات هناك تباينات كثيرة فى أسلوب الوصول إلى النمو؛ تلك الأنماط ذات الحجم الأكبر نتجت من التجمع ثم إعادة التجمع لتلك الأنواع ذات الحجم الأصغر، وتحدث هذه الزيادة بالالتئام المؤيد بتزايد الترابطات، تلك هى العملية التى من خلالها تشكلت أوسع الأمم مدنية.

مع الزيادة فى حجم المجتمعات تسير الزيادة فى بناء المجتمع. المعاشر البدائية Primitive hords كان لايوجد فيها تأسيسًا لتمايز بين الأجزاء «أى أن المعشر كان غير مقسم إلى أجزاء لكل جزء وظيفة». وينمو المعشر إلى قبائل أتت بعض التباينات فى كل من القوى أو الأعمال لأعضائها. وباتحاد القبائل تتابعت التباينات، الحكومية والصناعية، وجدت المراتب الاجتماعية خلال كل المجتمع، وجرت أيضا التناقضات بين الأجزاء المختلفة المهن فى مختلف المواقع. وتتضاعف مثل هذه الفروق والتناقضات كلما يتقدم التركيب ويتزايد. فهذه الفروق تتقدم من العام إلى الخاص. أولاً التقسيم الواسع بين الحاكمين والمحكومين، ثم فى داخل الجزء الحاكم تقسيم إلى سياسى ودينى وحربى، وفى داخل المحكومين تقسيم إلى فئات إنتاج الغذاء، والحرفيين اليدويين.

وعندما نعبر من الناحية البنائية إلى الناحية الوظيفية، نلاحظ أنه طالما أن كل أجزاء المجتمع لها طبائع ومناشط متشابهة، فإنه بصعوبة يكون هناك اعتماد متبادل، فإذا ماأخذت الأجزاء على عاتقها وظائف مختلفة فإنها تصبح متساندة «أى يعتمد كل جزء على الآخر» حتى أن الضرر لإحداهما يؤذى الآخرين، حتى نصل إلى المجتمعات الراقية، نرى أن ارتباك فى أى جزء يسبب قلق عام «لكل الأجزاء». هذا التناقض بين المجتمعات النامية والمجتمعات غير النامية، ينشأ من حقيقة أنه مع تزايد التخصص فى الوظائف يأتى تزايد فى عدم القدرة عند كل جزء لإنجاز الوظائف التى للأجزاء الأخرى.

«فصل ٢٧١» وهكذا التغير من التجانس homogenity إلى اللاتجانس heterogenity يمكن تمثيله كالآتى: من القبيلة البسيطة المتماثلة فى كل أجزائها إلى الأمة المتمدينة المملوءة بالبناءات والوظائف غير المتشابهة. ومع تقدم التكامل واللاتجانس يسير تزايد التماسك.

ذلك يعنى أن سبنسر فيما يختص بالديناميك سوسيال أبرز عددًا من العمليات المتمايزة وهى: ١- استمرارالحركة، ٢- التحرك من التجانس إلى اللاتجانس، ٣- تحرك المجتمع الدائم نحو التوازن.

ويذهب سبنسر إلى أن المجتمعات تتقدم بالضرورة من الحالة الحربية إلى الحالة الصناعية، وبذلك فهو يقدم نمطين من المجتمعات الحربى والصناعى، يقوم المجتمع الحربى على أساس إخضاع الفرد، فالتماسك فى مثل هذا المجتمع يقوم على إخضاع أعضاء المجتمع لرئيس ونواب رئيس ويكون أيضا التصلب بدرجة عالية، وكذلك يكون التنظيم والترتيب وتوزيع المكافأة بأسلوب إزعانى وينبع كل ذلك من التركيز الشديد للحكومة، أما المجتمع الصناعى فهو يمنح الأفراد مكانات اجتماعية عالية، ويتميز بدرجة أعلى من التنظيم والترتيب واللاتركيز، وتوزيع المكافأة عن طريق العقود، هذه الأنماط الاجتماعية جوهريا تمثل مراحل التطور من البدائى إلى الحديث.

وإن كان سبنسر يذهب إلى أن المجتمعات تتقدم بالضرورة من الحالة الحربية إلى الحالة الصناعية، إلا أن هناك حدودًا يقف عندها هذا التقدم والتطور حيث يحل التفكك والانحلال والموت بعد ذلك وهذا الانحلال يحدث تدريجيّاً أيضا. فهو بمثابة تطور معكوس أى تطور إلى الوراء[1]، وذلك لتتمشى هذه الفكرة مع نظرية التطور العضوى التى تنتهى بفناء العضو. ويحدث هذا بمجرد أن يصبح التوازن متصلب جداً حتى أنه يتحول إلى معوق للتقدم، ومن ثَمَّ يتحطم النسق وتفنى النظم القديمة المتصلبة، وتنبعث نظم جديدة، وهكذا يحدث التغير عنده.

وهكذا يمكن القول أن سبنسر كان يرى العالم فى حالة دائمة من التطور والتفكك والانحلال، واعتقد أن عمل علم الاجتماع هو تتبع هذه العمليات كما تحدث فى المجتمع. فقد اعتبر أن التطور عملية عالمية، وأن هذا قانون طبيعى عالمى. وكما فعل كونت قسم سبنسر المجتمع إلى ناحيتين استاتيك، وديناميك، ويوضح الجانب الاستاتيكى بناء النظم والأنساق الاجتماعية، بينما الديناميكى يتضمن عملية تطور البناء الدائمة، وأيضا قسم سبنسر المجتمع إلى نسقين رئيسيين، نسق داخلى وهو المتعلق بمساندة وتأييد وتوزيع الوظائف، والخارجى ويركز على الضبط الاجتماعى والترتيب الاجتماعى. هذه الأنساق الفرعية تعمل على المحافظة على بقاء المجتمع ككل عضوى أثناء عملية تطوره الدائمة.

(1) Koeing, S. : "Sociology, An Introduction to the Sceince of Society" Barnes and Nobele, New york, 1960,P.25.

اميل دوركيم EMILE DURKHEIM

(١٩١٧ - ١٨٥٨)

ولد دوركيم فى فرنسا من أسرة يهـودية، ودرس فى مدرسة المعلمين العليا فى باريس، واهتم بالقـانون والفلسفـة الوضعـية لأوجـست كونت، وترعـرع وتربى دوركيم فى ظل تقاليـد عصر التنوير، وتأثر بالاضطرابات السيـاسية والاجتمـاعية التى عاصرها فى شبابه.

وفى عام ١٨٨٧ عـين أستاذًا بجامـعة بوردو حيث ألقى مـحاضرات قيـمة فى التربيـة الأخلاقية، وظهـر فى ذلك الوقت اهتمامـه بدراسة المجتمع، حـيث قدم فصلاً دراسيّاً فى علم الاجتماع يعتبـر الأول من نوعه فى فرنسا، فأثار جدلاً كبيرًا بين العلمـاء المهتـمين بدراسـة المجتمع. ووضح فـى دراسته تأثره بـآراء أوجست كونت، وتطـويره للمذهب الوضـعى والنظرة العضـوية إلى المجتمع التـى ابتدأها أوجست كونت.

أهدافه:

كان عصر دوركيم يموج بتفسيرات متبـاينة للحياة الاجتماعية والمجتمع، منها التفسير النفسى والحيوى والفلسفى. ومن ثَمَّ كان هدف دوركيم الأول هو إثبات أنه إذا كانت هناك ظواهر طبيعـية خاصة بالعالم الطبيعى، ظواهر حـيوية خاصة بالكائنات الحية، فأيضا هناك نوع من الظواهرخاصـة بالحياة الاجتماعية ألا وهى الظواهر الاجتماعية Social phenomena وركز على المعايير الاجتماعية Social norms كمـثل واضح لتلك الظواهر الاجتمـاعية من خلال إبراز تأثيـراتها على المشاكل الاجتماعية فى معارضة صريحة لتلك التفسيرات السيكولوجية. بل قدم هذا الموضوع كتـابًا كاملاً يعتبر حـتى اليوم من عيون كتب علم الاجـتماع وهو كتـاب قواعـد المنهج فى علم الاجـتماع، ويدور هـذا الكتاب حـول إثبات أن الظواهر الاجـتـماعـيـة هى خارج الإنسـان وليـست بداخله فـمن ثَمَّ لا يمكن تفسيـرها سيكولوجيا. وانطلق دوركـيم من هذه إلى إثبات أن المجتمـع نفسه له

وجود مستقل عن أفراده المكونين لـه، وأنه أكبر وأعلى من رغبات أفراده، ومن ثَمَّ اهتم بما يسمى بالرغبة العامة ووضع مفـاهيم جديدة لظواهر اجتماعية كشف عنها مـثل العقل الجمـعى والإلزام الأخلاقى moral obligations، وخاصة فى حالة توجيه هذه الظواهر وضبطها لسـلوك الأفراد أثناء تفاعلهم داخل الجماعة، وذلك على خلاف مـا ذهبت إليه التفسـيرات السيكولوجيـة لسلوك الأفراد التى كانت سائدة فى أيام دوركيم.

ومن أجل هذا وضع دوركيم إطارًا اجـتماعيّاً خـارجيّاً كمنهج لدراسـة الوقائع الاجتمـاعية، وبهـذا استطاع دوركيم أن يساهم فى وجـود وتنمية علم الاجـتماع كعلم جديد له وحدته وموضوعه ومنهجـه ويتركز حول دراسة المجتمع كظاهرة لها وجودها الواقعى الخارجى المستقل.

نظرية التضامن الاجتماعى:

من أجل الهدف السابق ذكـره صاغ دوركيم مفـهومًا جديدًا وهو مفـهوم العقل الجمعى وهو بالفـرنسية La concience collective، وبالإنجليزية the goup mind واعتبـر دوركيم أن العقل الجمعى ظاهرة اجـتماعية واقعـية محسوسـة وملموسة. ويقصـد بهذا القول أن العـقل الجمعى شـأنه شأن الظواهر الاجتـماعيـة يقوم فى المجتمع من فطـرة المجتمع تلقائيّاً نتـيجة التفـاعل بين أفراد المجتمع، ويسـتمر فى البقاء بشكل معين وتتشربه الأجيال خلال التنشـئة الاجتماعية أو أثناء التربية سواء فى المدرسة أو المجتمع.

ويعتبر دوركـيم أن العقل الجمعى يتمثل فى العادات والعـرف والتقاليد والذوق العام والرأى العام وما اصطلح عليه أعـضاء المجتمع من نظم،أى أنه يمكن القول أنه يتركب فى مجمله من المعايير التى تحدد وتوجه سلوك أعضاء المجتمع، ومن ثَمَّ فهو ملزمًا لهم، بمعنى أنه أمر وله هيبتـه وجزاءاته إذا فكر أحد من أعضاء المجتمع فى الخروج على سنه، فهو يمثل قوة ضـاغطة موجهة، ويقاوم من يحاول الخروج عمـا رسمه من حدود للسلوك الإنسـانى فى مختلف المواقف الاجـتماعيـة. وقد أثارت هذه النقطة جـدلاً حول حرية الفـرد فى المجتمع وهذا الـقهر الذى يبـاشره

العقل الجمعى. ولكنه استطاع دوركيم أن يعالج هذه النقطة فبين أنه إلزام مفيد. إذ يقدم العقل الجمعى صيغًا ثقافية كأجوبه على أسئلة تثيرها مواقف اجتماعية، مثل ماذا أفعل فى هذا الموقف؟ فالعقل الجمعى يقدم هنا إجابات جاهزة قد تشربها وعرفها أعضاء المجتمع فهو إذن إلزام مفيد.

ليس هذا فقط بل إنه يعمل على إيجاد التناغم والانسجام بين أعضاء المجتمع، ذلك أن العقل الجمعى ينشأ أصلاً من التماثل بين أعضاء المجتمع

وما اتفقوا عليه من أساليب للسلوك فهى عاداتهم وأعرافهم وتقاليدهم. فهو إلزام لا يقع على أفراد معينين دون غيرهم إذ له صفة العمومية فهو يشملهم جميعًا فهو عام بالنسبة لهم. ومن ثَمَّ يحدث التفاعل الاجتماعى وتقوم العلاقات الاجتماعية فى يسر وسهولة. ومن ناحية أخرى يكون الصراع عند حده الأدنى، ذلك أن التوقعات للفعل ورد الفعل معروفة مسبقًا لأعضاء المجتمع، إذ قد حددها العقل الجمعى لهم من قبل. فهناك تساند وتكامل بين عقل الفرد والعقل الجمعى لما يقدمه الأخير من مساعدات للأول.

ويلاحظ أن هذا لا يعنى إلغاء العقل الفردى بمعنى أنه ليس له أن يغير أو يبدل فى أحكام العقل الجمعى، ذلك أن العقل الجمعى نفسه ماهو إلانتاج تفاعل أعضاء المجتمع، ومن ثَمَّ فكل فرد من أفراد المجتمع قد شارك فى صنعه، وبالتالى لديه القدرة فى المشاركة فى تغير ما يحتويه العقل الجمعى من معايير. ولهذا يمكن القول أن العقل الجمعى يتغير فى استجابة للتغيرات الحادثة فى المجتمع.

ومن ناحية أخرى يعنى هذا تشابه العقل الجمعى فى المجتمعات المتشابهة فى أشكالها الاجتماعية مثل المجتمعات التوتمية، ففى مثل هذه المجتمعات يتشابه العقل الجمعى فى داخلية الأشكال، ذلك أن هذه المجتمعات تتشابه ظروفها الاجتماعية وخاصة فى مظاهر تركيبها العام، أى فى بنائها الاجتماعى. فهناك إذن ترابط وثيق بين هذا العقل والشكل الاجتماعى العام، أى بنية المجتمع. وتقودنا هذه الفكرة إلى فكرة أخرى وهى أن العقل الجمعى يتغير بتغير الأشكال الاجتماعية للمجتمعات، فهو إذن عقل متغير بتغير الزمان والمكان تبعًا لتغير بناء

المجتمع. ومن هنا أمكن لدوركيم أن يـقول بتعدد العقول الجمعـية بتعدد الأشكال الاجتماعية حتى فى داخل المجتمع الواحد.

ففى المجتمعـات الكبيرة أى المركبة حيث يتركب المجتمع من أشكال اجـتماعية متعددة أى من جـماعات اجتماعـية كثيرة. فيصـبح لكل جماعة اجتمـاعية عقل جمعى، فمـثلاً فى الولايات المتحدة يمكن القول أن هناك عقل جـمعى للفلاحين وعقل جمعى للعمال وعقل جمعى للبيض، وعقل جمعى للسود.

وتقودنا هذه الفكرة إلى الفرق بين المجتمعات ذات العقل الجمعى الواحد حيث تكون المجتمـعات بسيطة متجـانسة التركيب، أى أن بنائها الاجـتماعى يتكون من جماعة واحدة. وتلك المجتمعات المعقدة التركيب أى التى يتكون بنائها الاجتماعى من جماعات متعددة، أى عقول جمعية متعددة.

ويعتبر دوركيم أنه حيث يكون هناك عقـلاً جمعيّاً واحدًا يوجه سلوك الأفراد تشتـد وطأته إذ ليس هناك منازع لسلطانه، فـيسـيطر هذا العقل الجمـعى على عقـول الأفراد وأخلاقـياتهم وسلوكهـم. ويبدو ذلك واضحًـا فى المجتمـعات البدائية، أو المجتمـعات الصغيرة فى البادية مثل القبائل أو المجتـمعات البسيطة فى الريف مثل الكفور والنجـوع، حيث تكون عملية الضبط الاجتـماعى قائمة على أساس ما يتضمنه العقل الجمعى من معايير توجه.

وكانت المجتمعـات القديمة التى يقصدها دوركيم هى تلك المجتـمعات البسيطة التركيب مثل المجتمعات التوتمية التى تتكون من جـماعة اجتماعية واحدة، وحيث التماثل بين الأفراد يبلغ أقصاه، وبالتالى تبلغ أيضا قوة العقل الجمعى أقصاها، ومن ثَمَّ يصبح التضـامن والتماسك والتكامل الاجتـماعى أقصـاه أيضـًا. وهو ما أطلق عليه مـفهوم التضامن الآلى فهـم يتحركون وكأنهم كائن واحـد له كيانه الذاتى، والفرد منصهر فى المجـتمع، ويخضع العقل الفردى خضـوعًا تامّاً للعقل الجمعى، وتتخذ أوجه النشاط الاجتماعى الصفة الكلية الجمعية، فالملكية الجمعية، والمسئوليـة جمعيـة، والإنتاج جمعى. والحـرب جمعية، والعـبادة جمعـية، فهى مجتمعات صغيرة تتعدد وظائفها ولا تتجزأ فى هيئات أو منظمات لأن صغر حجم

المجتمع لا يسمح بذلك. فالحياة الاجتماعية مقسمة ومجزأة فى مجتمعات صغيرة ومتعددة ومتشابهة فى شكلها الاجتماعى رغم أنها متمايزة، وهذا ما سماه دوركيم بالبناء الانقسامى Segmenjtal Structure، واعتبره عقبة كؤود فى وجه تقسيم العمل، وأنه لا بد من اختفاء هذا البناء الانقسامى ليظهر تقسيم العمل.

فتقسيم العمل يتغير فى معدل مباشر مع الحجم والكثافة للمجتمعات وإذا تقدم تقسيم العمل بصفة مستمرة فى مجرى النمو الاجتماعى، فذلك يرجع إلى أن المجتمعات أصبحت أكثر كثافة وحجمًا، ولا يعنى القانون السابق أن النمو والكثافة للمجتمعات يستلزمان بالضرورة تقسيمًا أكثر للعمل، كما أنهما ليس الأداة التى يتحقق بها تقدم تقسيم العمل، بل أنهما علته الحتمية. . .

وطبقًا لأكثر النظريات شيوعًا وانتشارًا أن أصل تقسيم العمل فى عدم توقف رغبة الإنسان فى زيادة سعادته، فمن المعروف، أنه كلما زاد تخصص العمل يكون الناتج أعلى. . .والإنسان محتاج لكل هذه الأشياء، ومن ثَمَّ سوف يبدوأنه أكثر سعادة كلما امتلك أكثر، ونتيجة لهذا، قد يكون مدفوعًا طبيعيّاً للبحث عن تلك الأشياء، ذلك مسلم به. . .لقد قيل إن هناك نسيج من الظروف من السهل تصوره نبه الإنسان عن بعض المميزات، فجعلته يبحث عن امتدادها الأبعد وأعظم منفعة ممكنة، وإذن سيكون تقدم تقسيم العمل تحت تأثير أسباب فردية وسيكولوجية. .

إذا كان تقسيم العمل تقدم لزيادة سعادتنا لكان وصل إلى حدوده النهائية منذ زمن طويل، تمامًا مثل المدينة الناتجة عنه، ولكان كلاهما توقف، إذ لكى يوجه الإنسان هذا الوجود ليكون أكثر ملاءمة للسعادة، ليس من الضرورى جمع المنبهات من كل الأنواع. ولكان يكفى نمو متوسط لإعطاء الأفراد الكمية الكلية من السعادة التى كانت فى قدرتهم، ولكانت الإنسانية وصلت سريعًا إلى الحالة التى سوف لا تتقدم عنها أو تنبعث منها. ذلك ما حدث للحيوانات فمعظمها لا يتغير منذ قرون لأنها وصلت إلى هذه الحالة من التوازن[١].

(1) Durkheim, Emile : "The Division of Labour in Society" Trans George Simpson. Glenoce Illnios: The Free press, 1949.p.204-237. مع التركيز .

ولكن ينمو تقسيم العمل باختفاء البناء الانقسامى ذلك لأن هذا الاختفاء هو السبب فى النمو، أو أن النمو هو سبب الاختفاء. الفرض الأخير غير مقبول. لأننا نعلم أن التنظيمات الانقسامية عقبة كؤود لتقسيم العمل ولا بد أن تختفى جزئيّاً على الأقل ليظهر تقسيم العمل. فتقسيم العمل يظهر فقط على قدر اختفاء البناء الانقسامى، للتأكد من ذلك، فإن مجرد ظهور تقسيم العمل يساهم فى الإسراع فى تناقصه الآخر، ولكنه يحدث ويقع فقط بعد ابتداء التقهقر، اختفاء هذا النمط «الانقسامى» يمكن أن يكون له هذه النتيجة لسبب واحد فقط. ذلك لأنه يعطى النشأة لعلاقات بين الأفراد الذين كانوا منفصلين، أو على الأقل علاقات أكثر قربًا عما كانت عليه.

هذه العلاقات وذلك النشاط المتشابك الناتج من كبر حجم المجتمع، إذا وافقنا على تسميته بالكثافة الديناميكية أو المعنوية، يمكننا القول أن تقدم تقسيم العمل هو فى معدل مباشر للكثافة الديناميكية أو المعنوية للمجتمع، ويلاحظ أن هذه الكثافة الديناميكية لا يمكن أن تحدث إلا إذا حدثت الكثافة المادية[1].

وهكذا يتقدم تقسيم العمل كتخصص كل جماعة فى عمل، ومن ثَمَّ تتكون فى داخل هذا المجتمع جماعات اجتماعية متعددة، وكلما كبر حجم المجتمع كلما تعددت الجماعات الاجتماعية، ومعنى ذلك أنه بدلا من عقل جمعى واحد، تصبح سمة المجتمعات الكبيرة عقول جمعية متعددة، أى أن التضامن الآلى الذى كان يصنعه العقل الجمعى الواحد فى المجتمع الصغير يختفى، ويظهر نوع آخر من التضامن بين هذه العقول الجمعية وسمى دوركيم هذا التضامن بالتضامن العضوى. وبينما يعتمد التضامن الآلى على التماثل والتشابه بين أعضاء المجتمع، فإن التضامن العضوى يستمد أسسه من التباين بين الجماعات الاجتماعية داخل المجتمع.

وهكذا سوف نتعرف على نوعين من التضامن الإيجابى الذى يمكن التمييز بينهما بالنوعيات الآتية:

(1) Ibid. p.p. 256- 257.

١- يربط الأول الأفراد مباشرة بالمجتمع بدون أى وسائط. فى الثانى يعتمد على المجتمع لأنه يعتمد على الأجزاء التى يتركب منها.

٢- لا يرى الإنسان المجتمع بنفس الشكل فى كل من الحالتين، فى الأول مانسميه مجتمعًا منظم كلية من معتقدات ومشاعر عامة عند كل أعضاء الجماعة، ذلك هو النمط الجمعى Collective type. ومن ناحية أخرى المجتمع الذى نتماسك فيه بالأسلوب الثانى هو نسق من وظائف متخصصة مختلفة التى تحدد وحدة العلاقات. يصنع كل من هذين المجتمعين حقيقة واحدة. فهما وجهان لشىء واحد ولنفس الحقيقة، ومع ذلك لا بد من التمييز بينهما.

٣- من الاختلاف السابق ينشأ اختلاف آخر يساعدنا فى وصف وتسمية النوعين من التضامن.

التضامن الأول يمكن أن يكون قويّاً فقط إذا كانت الأفكار والميول العامة بالنسبة لكل أعضاء المجتمع كبيرة فى عددها وعظيمة فى كثافتها عن تلك الميول والأفكار التى تربط بين كل عضو والآخر بصفة شخصية، هذا النوع من التضامن يمكن أن ينمو فقط فى معدل مضاد للشخصية. هناك فى كل واحد منا عقلين اثنين، واحد وهو العام بالنسبة لجماعتنا «العقل الجمعى»، وجماعتنا ليست أنفسنا، ولكنها المجتمع يعيش ويعمل من خلالنا، العقل الآخر، بالعكس، يمثل ذلك الذى بداخلنا والذى هو شخصى وواضح ومتميز، والذى يجعل من كل منا فردًا. التضامن الذى يأتى من التماثل يكون عند نهايته العظمى عندما العقل الجمعى يغلق تمامًا كل عقلنا «الفردى» ويتحد ويتطابق فى كل النقاط معه، ولكن عند هذه النقطة تتلاشى فرديتنا.

هنا يوجد قوتان متعارضتان تعمل على الدفع نحو المركز «مجمعة centripeted». والأخرى تدفع بعيدًا عن المركز «مشتقة centrifugal» ولايمكن أن يزدهر كلاهما فى نفس الوقت. إننا لا يمكن أن ننمى أنفسنا فى اتجاهين متعارضين فى نفس الوقت، فإذا كانت لدينا رغبه عارمة لنفكر ونعمل من أجل أنفسنا، لا يمكن أن نتجه بقوة للتفكير والعمل كما يفعل الآخرون.

إذا كان مـثالنا أن نقـدم منظرًا فـريدًا وشخصـيّاً، فنحن لا نـرغب فى التشـبه بالآخرين. وأكثـر من ذلك عند اللحظة التى يباشر فـيها هذا التضـامن قوته، فإن شخصيتنا تتلاشى، لأننا لم نعد أنفسنا بعد، ولكن الحياة الجمعية collective life.

الجزئيات الاجتماعية Social molecules التى يمكن أن تتماسك بهذا الأسلوب يمكن أن تعـمل فقط بأسلوب يظهـر أنه ليس لديها أفـعال، أى أن ليس لدى أى جزء قدرة على الفـعل وحده أو لديه فعل خاص به، تمامًا مثل جـزئيات الأجسام غيـر العضـوية، ذلك يوضح لماذا نقتـرح تسميـة هذا النمط من التضـامن بالآلى mechanical، هذا المصطلح لايـشيـر إلى أن هـذا التـضـامن ينتج بوسـائل آليـة وصناعـية. نحن سـميناه كـذلك فقط بالمناظرة مع التـضامن الذى يربط عنـاصر الأجـسام عـديمة الحـياة. مـايبرر هذا المصطلـح هو أن الرابطة التى توحد الفـرد بالمجتـمع تناظر تمامًا تلك التى تربط شيـئًا بشخص. يعـتمد العـقل الفردى على النمط الجمعى ويتبع كل حـركاته كما يتبع الشىء المملوك مالكه. فى المجـتمعات التى ينمو فيها هذا النمط من التماسك بدرجـة عالية، لا يظهر الفرد. التفرد شىء يملكه المجتمع.

أما التـضامن الناجم عن تقسـيم العمل فهـو يختلف تمامًا عن ذلك التـضامن السابق. إذ بينما يتضمن النمط السـابق أن الأفراد يتماثل كل منهم مع الآخر، فإن هذا النمط يفترض اختلافهم. الأول «التضـامن الآلى» ممكن فقط طالما أن شخصية الفرد امتصت فى الشخصية الجمعية، النمط الثانى ممكن فقط إذا كان كل واحد له مجال للفعل خاص به، بمعنى شخصـيته. ومن ثَمَّ يصبح من الضرورى أن يسمح العقل الجمـعى بترك جزء من العقل الفردى مفـتوحًا من أجل أن تؤسس الوظائف المتخصصـة فى هذا الجزء. وكلما امتد ذلك المجال «مجـال الفعل الخاص»، كلما زادت قوة التـماسك الناجم من التـضامن. وفى الحقـيقة يعـتمـد كل واحد على المجتمع بشكل أكثر شدة كلما زاد تقسيم العمل، ومن ناحية أخرى تصبح المناشط أكثر شخصية كلما زادت تخصصًا.

وفى خـبراتنا المهنيـة نحن نتطابق مع العـادات والخبـرات التى هى عامـة لكل إخواننا فى المهنة. ولكن حتى فى هذه الرابطة التى نخضع لهـا نجد أنها أقل كثيرًا

obeikan.com

فى ثقلها عن الـضبط الكامل للمجـتمع، كمـا أنها تترك لإمكانيـاتنا مكانًا أوسع مفتوحًا للأداء الحر. وهنا تنمو فردية الكل فى نفس الوقت الذى ينمو فيه كل جزء من أجزائه. وهكذا يـصبح المجتـمع أكثر قـدرة على الحركة الجـمعـية. وفى نفس الوقت يكون لدى كل عنصر من عناصره حرية أكثـر للحركة. هذا التضامن يماثل ذلك الذى نلاحظه بين الحيوانات العليا. فى الحقيقـة كل عضو له وظيفته العضوية الخاصة وما هو أكثر من ذلك فإن وحدة الكائن العضوى عظيمة جداً عظم الفردية الملحـوظة لكل جـزء منه، ومن أجل هـذا التناظر نحن نقـتـرح أن نسـمى ذلك التماسك الذى يرجع إلى تقسيم العمل، تماسكًا عضوياً [1].

وهكذا يعنى دوركيم بمفهـوم التضامن العضوى، أن كل جماعـة من الجماعات لها وظيفتها فى المجتمع، كجماعـة المدرسين وجماعة الأطباء وجماعة الفلاحين، هذه الوظائف تتكامل لتوفر الحياة للمجـتمع ككل، تمامًا مثل الكائن البشرى الذى يتكون من أعضاء وكل عضو له وظيفته المستقلة، ولكن كل هذه الوظائف العضوية تتكامل فى أداء الوظيـفة الكبـرى وهى حـياة الكائن البـشرى، ومن هنال سـمى دوركيم هذا التضامن بالتضامن العضوى.

وهكذا خلص دوركيم إلى أن التـضامن الاجتـماعى هو مؤسس على تقـسيم العمل فى المجتمع، بمعنى أنـه كلما كان تقسيم العمل بسيطًا كلمـا كان التماسك أقوى وحيث تكون المعايير لها السيادة ومن ثَمَّ يكون الضبط الاجتماعى فى أعلى حـالاته وبالتـالى مسـتـوى عـال من التكامل. وأيضـا ربط بين حـجم السكان وكثافتهم المعنويـة ومستوى تقسيم العمل والتضامن الاجـتماعى، بمعنى أنه كلما كبـر حجم المجتمع وزادت كـثافتـه الديناميكية، ينتج عن ذلك زيادة فى تقـسيم العمل، وزيادة العلاقات الـتعاقدية، ومستوى منخـفض من التضامن والتكامل، وفى مثل هذه الوضعية الاجتمـاعية يكون عامل الضبط هو القانون، ويؤدى مثل هذا المجتمع إلى مسـتوى عال من الاغتراب وفقدان المعـايير، وعند هذا المستوى يرتفع معدل الانحـراف مثل الانتحار، طالما الرابطة بين الفرد والبناء الاجـتماعى أصبحت ضعيفة.

***

(1) Ibid: p.p.127-131.

فرديناند تونيز FERDINAND TONNiES

(١٨٥٦-١٩٣٦)

ولد فرديناند تونيز فى بلدة ازنيشتات Eisenstadt وهى مجتمع قروى وقد تتلمذ على تراث هوبز Hobbes، وهيجل Hegel، وأوجست كونت Comte وسبنسر Spencer، وعين فى جماعة كيل بألمانيا، وصار فيها أستاذًا حتى فصله النازيون بالرغم من أنه كان من المتشيعين للاشتراكية الدولية فى بدء ظهورها.

ويعتبر تونيز المؤسس الحقيقى لعلم الاجتماع فى ألمانيا المعاصرة فقد ألف كتبًا فى علم الاجتماع أحدثت دويّاً فى ألمانيا وخارجها، منها كتاب الجماعة المحلية والمجتمع العام، وكذلك كتابه مدخل إلى علم الاجتماع وكتاب روح العصر، بل أيضا أجرى بحوثًا تطبيقية، ذلك أنه عندما ألف فى النظرية الاجتماعية لم يعتبرها جزءا منفصلاً عن البحث الاجتماعى، بل اعتبر أن كل منهما مكمل وضروى للآخر. ذلك دعاه إلى تقسيم علم الاجتماع إلى ثلاث فروع، الأول علم الاجتماع النظرى، والثانى علم الاجتماع التطبيقى والثالث علم الاجتماع التجريبى. وهذه الفروع الثلاثة تمثل وحدة العلم التى اصطلحت عليها كافة الاتجاهات الاجتماعية كموضوع للدراسة والبحث سواء فى ألمانيا أو خارجها[1].

ويقصد تونيز بعلم الاجتماع النظرى دراسة الحقائق الاجتماعية المجردة، ويعنى بذلك العلاقات الاجتماعية Social Relations، والتجمعات الاجتماعية Social Collectives والأجسام الاجتماعية Social Bodies أى المؤسسات والهيئات الاجتماعية. أما علم الاجتماع التطبيقى فهو عنده دراسة العمليات والأحداث التاريخية المؤدية إلى التطور الاجتماعى، وقد كتب بحوثًا فى هذا الموضوع وخاصة عن تطور المجتمع الحديث كما نشر عدة مقالات عن التقدم والتطور. ويعنى علم الاجتماع التجريبى استخدام حقائق ونظريات الاجتماع النظرى فى الدراسات البيئية والمحلية عن القيام بالمسوح والتحقيقات الاجتماعية، فهو علم يهدف إلى الانتفاع

(1) Barnes: Op. Cit., P. 231.

obeikan.com

بالنظريات الاجتماعية فى الإصلاح الاجتماعى، ومن أهم بحوثه فى هذا الشأن ذلك المسح الذى قام به على أثر إضراب الملاحين فى ميناء هامبورج وعدة موانى أخرى لدراسة الموقف الاقتصادى والاجتماعى للملاحين.

نظرية الإرادة الإنسانية

أهدافه:

كان هدف تونيز من دراسته المستفيضة فى الفلسفة والقانون الطبيعى والعلوم الاجتماعية سواء عند الألمان أو الإنجليز أو الفرنسيين، هو محاولة فهم المعنى الحقيقى لكل من المدرسة العقلية فى القانون الطبيعى من ناحية، والنظريات التاريخية والرومانتيكية «العاطفية» المعارضة من ناحية أخرى. أدت به هذه الدراسة العميقة إلى الانتهاء إلى أن كل صور التفكير التى يظن أنها غير العقيلة أو الأقل تعقلاً ليست رشيدة، ولكن كل منها لها معناها الخاص، وهى فى النهاية مشتقة من الإرادة الإنسانية Human Will. فمن ثَمَّ أصبحت النظريات الاجتماعية عند تونيز معلومات اجتماعية وانعكاسات للظروف الاجتماعية وهى فى النهاية تعبيرات عن الإرادة الإنسانية.

وهكذا اتجه تونيز إلى دراسة المجتمع على أنه نتاج الإرادة الإنسانية، وأن هذه الإرادة هى أساس الوجود الاجتماعى. ويعتبر كتابه الجماعة المحلية Gemeinschaft والمجتمع العام Gesellschaft نظرية فى الإرادة الإنسانية قائمة على أساس محاولة فهم الطبيعة الإنسانية Human Nature ومن ثَمَّ فهى محاولة المجتمع كوظيفة Function للإرادة الإنسانية.

نظرية الإرادة الإنسانية

كانت الثنائية أى تصنيف المواضيع إلى نوعين متقابلين هى الفكرة السائدة فى الدراسات سواء القانونية أو السياسية أو الاجتماعية فى القرن التاسع عشر وحتى مطلع القرن العشرين.

وكان تونيز مهتما بالنظريات العقلية وما يقابلها من النظريات الرومانتيكية «العاطفية» فى القانون والسياسة، ومن ثَمَّ اتجه تونيز إلى صياغة مفهومين تحليليين

متقابلين هما الجماعة المحلية والمجتمع العام وذلك على أساس مفهومين متقابلين عن الإرادة الإنسانية فهى إما أن تكون عاطفية وهى صفة الجماعة المحلية، أوتكون عقلية وهى صفة المجتمع العام.

ويعنى تونيز بالإرادة العاطفية أنها الإرادة الإنسانية النابعة تلقائياً من الطبيعة البشرية، من عواطف المشاركة الوجدانية ووحدة المشاعر الإنسانية، ومن ثَمَّ فهى صفة الجماعة المحلية.

أما الإرادة العقلية، فهى الإرادة الإنسانية التى تظهر فى استجابة لحاجات المجتمع، إذ عندما يكبر حجم الجماعة المحلية ويتسع نطاقها إلى مجتمع كبير يضم عدة جماعات، ومن ثَمَّ تنشأ حاجات اجتماعية جديدة، ووظائف اجتماعية جديدة، ومن ثَمَّ تطور الإرادة العاطفية إلى إرادة عقلية تحكمية تعمل على إنشاء الوحدات الاجتماعية من مؤسسات ومنظمات لتشبع تلك الحاجات الاجتماعية الجديدة، وهكذا تتحول الجماعة المحلية إلى مجتمع عام على أساس تنظيم إرادى.

اتجه تونيز بهذين المفهومين «الجماعة المحلية والمجتمع العام» ليشرح ويفسر العلاقات الاجتماعية، وبالتالى تفسير وشرح البناء الاجتماعى لكل من هذين النمطين من التجمعات البشرية.

وقسم تونيز العلاقات الاجتماعية إلى علاقات إيجابية وهى تؤدى إلى تكامل المجتمع واستقراره ووحدة أهدافه، أما العلاقات السلبية. فهى تؤدى إلى الصراع والاختلاف وتفكك المجتمع وانهياره.

إذ يعتبر تونيز «أن الإرادات الإنسانية توجد فى شكل علاقات متنوعة ومتقابلة، وكل من هذه العلاقات هى فعل متبادل، كما لو أن جزءا نشط أو يعطى بينما الجزء الآخر سلبى أو يستقبل. هذه الأفعال من طبيعة تميل إما إلى الإبقاء والحفظ preservation أوتميل إلى الإفناء destruction بمعنى أنها إما إيجابية أوسلبية. . .كل علاقة من هذا النوع تعتبر كتعبيرات عن الإرادات وقواها. والجماعة التى تتشكل خلال هذا النمط الإيجابى من العلاقات تسمى اتحاد association "verbindung"، وينظر إلى هذه الجماعة كشىء كائن يعمل كوحدة سواء فى داخله أو فى اتجاه خارجه.

وأيضا العلاقة نفسها والاتحاد الناجم عنها يعتبر إما حياة حقيقية وعضوية وهذه هى الخاصية الأساسية للمجتمع المحلى "Gemeinschaft" communinty، وإما يعتبر بناء آلى وخيالى وهذا هو مفهوم المجتمع العام "Gesellchaft" Society.

من خلال استخدام هذين المصطلحين سوف نرى أن التعبيرات منغرسة فى مترادفاتها فى اللغة الألمانية ولكن قد اعتاد الناس استعمالها بأسلوب عشوائى بدون تمييز. لهذا السبب سأقدم بعض الملاحظات لشرح التضاد العميق بين هذين المفهومين. كل أنماط الحياة الحميمة والخاصة المقتصرة على أصحابها. أينما اكتشفناها تفهم على أنها حياة فى مجتمع محلى. أما المجتمع فهو الحياة العامة، إنه العالم نفسه.

فى المجتمع المحلى مثلاً مع الأسرة، يعيش الإنسان فيها فى ارتباط دائم بها منذ الولادة فى السراء والضراء على السواء. بينما عندما يذهب الإنسان فى المجتمع يذهب كما لو أنه فى مجتمع غريب. وعادة نحذر الشباب من سوء المجتمع، بينما تعبير «سوء» المجتمع المحلى- إضافة كلمة سوء إلى مصطلح المجتمع المحلى- ينقص معنى المصطلح وينفيه.

المجتمع المحلى قديم، بينما المجتمع Society جديد كاسم وأيضا كظاهرة اجتماعية، أينما تزدهر ثقافة حضرية urban culture وتحمل ثمارها يظهر المجتمع كالعضو الملازم لها. والذى يعرف الناس القرويون القليل عنه، ومن ناحية أخرى، كل فضائل الحياة القروية تشير إلى أن المجتمع المحلى يوحد بين الناس بقوة وأنه أكثر حيوية، إنه الشكل الحقيقى والأبقى للحياة معًا، وبعكس المجتمع المحلى، يكون المجتمع العام وقتى وسطحى. وتبعًا لذلك يجب أن نفهم المجتمع المحلى ككائن عضوى حى، بينما المجتمع العام تجمع ميكانيكى صناعى»[1].

وهكذا اعتبر تونيز أن الجماعة المحلية القائمة على الإرادة العاطفية تتميز بالعلاقات الاجتماعية الإيجابية. ومن ثَمَّ فنوع التضامن الاجتماعى فيها طبيعى، حيث يرتبط الفرد بالروابط الاجتماعية المستقرة، مثل روابط الدم، وهى فى نظره

(1) Toennies, F. : "Community and Society "Gemeinschaft und Gesellschaft" trans by Charles, p. Looms, Michigan state university press, 1957 Book I. p. 33-44.

أساس كل جماعة لأن الأسرة هى نواة الجماعة المحلية. وفى الأسرة حيث تبتدئ العلاقات فيها باتحاد بين عضوين «زوج وزوجة» ثم ينتجان أعضاء جدد «الأبناء». وهكذا سرعان ما تتحول هذه العلاقات العضوية إلى علاقات عاطفية وروحية تتزايد حدتها نتيجة المشاركات الوجدانية.

ولكن الوحدات الأسرية لا تستطيع أن تعيش كل بمعزل عن الأخرى ومن ثَمَّ تتصل بأسر أخرى يجمعهم رباط جديد هو رباط الجوار، وفى كثير من الجماعات المحلية تبتدئ رابطة الجوار بين مجموعات من الأسر ذات الصلات القرابية سواء كانت قرابة دموية أو قرابة اجتماعية. ومن ثَمَّ نتيجة لهذا التجاور والتعاون المشترك والمشاركات الوجدانية تنشأ عادات وأعراف وتقاليد وقيم التى تصبح هى أداة الضبط الاجتماعى حيث يخضع لها أعضاء المجتمع خضوعًا تامّاً فهى معايير الجماعة المحلية، ذلك نتيجة لانصهار أعضاء الجماعة فى بوتقة الحياة الاجتماعية المشتركة.

وهكذا تكون الإرادة العاطفية صفة الجماعة المحلية التى يسود أعضائها التضامن الطبيعى، وتتميز بحدة التفاعلات والمشاركات الوجدانية والاتصالات المباشرة، فينشأ عن كل ذلك رابطة التجاذب العاطفى ووحدة المشاعر ووحدة المعايير القائمة على الدين والعرف والعادات، التى تؤدى بدورها إلى قوة الوحدة الجمعية، فتصبح الالتزامات جمعية والمسئولية جمعية، بل والملكية الجمعية فى كثير من الجماعات المحلية.

أما المجتمع العام القائم على الإرادة العقلية التحكمية التى أنشأت جماعات اجتماعية أو أجسام اجتماعية «مؤسسات ومنظمات» لتحقيق أهداف معينة وهو يعنى بمثل هذه المجتمعات المدينة والدولة حيث توجد الهيئات السياسية والأحزاب والنقابات والجمعيات العلمية والشركات الصناعية والتجارية والمؤسسات المالية والهيئات الترفيهية، فشكل المجتمع العام عبارة عن تركيب صناعى من أجزاء كثيرة ووحدات متعددة كلها قائمة على أساس إرادى. ويعتبر تونيز أن هذا الشكل الاجتماعى ينشأ تلقائيّاً وهو الذى يدفع البناء الاجتماعى إلى التغير من الجماعة المحلية إلى المجتمع العام.

ويرى تونيز أنه عند التحول من الجماعة المحلية إلى المجتمع العام يحدث تحول فى العلاقات الاجتماعية، من علاقات اجتماعية عاطفية روحية مفعمة بالمشاركة

الوجدانية، إلى علاقات اجتماعية تقوم على أساس من القانون- أى علاقات تعاقدية- لأن كل فرد لا يعرف الآخر، ومن ثَمَّ يسود العلاقات الاجتماعية الشك والحذر والمنفعة الخاصة. فالعلاقات الاجتماعية كلها تنبع من إرادة عقلية تحكمية ذات تفكير تقديرى، تقدر مدى ما تجلبه هذه العلاقة أو تلك من منفعة. وهكذا يسود هذا المجتمع التنافس والصراع وتنتشر النزعات الانتهازية، فهى إذن علاقات اجتماعية سلبية.

وفى مثل ذلك المناخ الاجتماعى الذى يسوده علاقات اجتماعية سلبية، يجد الفرد أنه لا يستطيع أن يعيش وحده، فهو ينضم إلى جماعة أو طائفة أو طبقة يستمد منها وجوده الاجتماعى. يخضع لها ولمعاييرها، ودعمها بكل قوته فى كل مواقفها وفى كل منافساتها وكل صراعاتها مع الجماعات أو الطبقات الأخرى، وكلما كبر المجتمع وتعددت أنشطته، تزايدت هذه الجماعات وتمايزت كل عن الأخرى وتضاربت مصالحها واشتد الصراع بينها.

وقد أفصح تونيز فى كتابه «روح العصر الحاضر» عن استيائه من التطور الحديث الذى أدى إلى نشأة المجتمع العام حيث تسود العلاقات الاجتماعية التقديرية والمادية والانتهازية التى حلت محل العلاقات العاطفية والروحية والمشاركات الوجدانية.

وهكذا خلص تونيز إلى أنه بما أن المجتمع وظيفة Function للإرادة الإنسانية وبما أن الإرادة الإنسانية نوعان، الأولى إرادة عاطفية روحية، والثانية إرادة عقلية تحكمية فمن ثَمَّ ينقسم التجمع البشرى إلى نوعين:

١- الجماعة المحلية كوظيفة للإرادة العاطفية وتعبيرًا عنها. ويمثل تلك الإرادة المجتمعات التقليدية والمحلية القائمة على أساس العلاقات الأسرية، ومعايير الحب والتفاهم واللغة المشتركة.

٢- المجتمع العام كوظيفة الإرادة العقلية التحكمية ويمثلها بصفة خاصة المجتمعات الصناعية القائمة على أساس علاقات لا شخصية ونفعية، ومعايير القيم الاقتصادية، والراوبط هى روابط الطبقات الاجتماعية والتعاقدات الاقتصادية.

مثل هذا التقسيم يشابه تقسيم دوركيم للمجتمعات على أساس نمطى التضامن الاجتماعى.

الوظيفية البنائية
STRUCTURE FUNCTIONALISM

الظروف الاجتماعية

تعتبر النظريات الوظيفية البنائية رد فعل المنظرين لحاجات السياسة والاجتماعية والاقتصادية للمجتمع المعاصر، ولقد نشأت هذه الحاجات عن الحرب العالمية الأولى والثانية، وكذلك الأزمة العالمية التى وقعت سنة ١٩٣٠، وكان لها آثار اجتماعية واقتصادية واضحة على الحياة الاجتماعية، وأيضًا المشكلات الاقتصادية والاجتماعية الناشئة عن النمو السريع فى التكنولوجيا، والتى عادة تسمى بالمشاكل التكنولوجية.

أما المنظرون أنفسهم فأغلبهم من فئة المثقفين من الصفوة الذين كان معظمهم يحاول استخدام فلسفة القرن التاسع عشر التى تركز على أهمية القوانين الطبيعية والتغير الاجتماعى الذى يتصف بالتقدم، وكذلك نزعة الإصلاح الاجتماعى، والمناظرة العضوية للمجتمع فى داخل محتوى نسق قيم نفى وعملى وغير مثالى.

هذه النظرة تعتبر المجتمع كنسق ذى علاقات متبادلة ومتساندة بين أجزائه، ويتطور، ولديه ككل موجهات نحو التوازن، ويمثل حاجات النسق المهمة أو وظائفه.

وهكذا تعتبر الوظيفية البنائية محاولة عملت من أجل إنشاء نظرية عامة عن المجتمع تقوم على أساس افتراض أن المجتمع يوجد ويمتلك حقيقة مستقلة، أو بمعنى آخر، وجودًا كنسق اجتماعى له خواص تشبه خواص الإنسان الأخرى الموجودة فى الكون، أى مثل الأنساق الطبيعية والأنساق الحيوية.

ومن ثَمَّ يصبح بؤرة علم الاجتماع طبقًا للوظيفية البنائية هو اكتشاف الخواص الأساسية للنسق الاجتماعى وأسلوب تطورها وذلك من أجل الوصول بالتغير الاجتماعى إلى أقصى درجة من النظام.

ويلاحظ أن أصحاب النظرة الوظيفـية البنائية لا يتفقون جمـيعًا حول الوظائف الأساسـية التـى يتضـمنها المجـتمع. فـمنهم من يذهب إلى أن المجتـمع له نفس الخواص والصفات التى للأنساق العضوية، وخـاصة مبدأ التجانس والتوازن، بينما آخرون اعتبروا المجتمع نسق معيارى يوجد فى داخل الأفراد أكثر من خارجهم.

وهكذا نجد أن النظرية الوظيفية البنائية نمطين كـبيرين النمط الطبيعى من ناحية، والنسق المعيارى من ناحيـة أخرى، وعلى أى حال فكل منهما يعتـبر المجتمع نسق أو وحدات كبرى macroscopic يتطور، وقائم على وظائف مهمة معينة. والفرق الرئيسى بين نظرية وأخرى هو الاختلاف حـول تلك الوظائف أكثر من الاختلاف بين أشكال النظريات.

●●●

obeikan.com

تالكوت بارسونز
TALCOTT PARSONS
(١٩٠٢ - ١٩٧٩)

ولد تالكوت بارسونز فى كلورادو بالولايات المتحدة فى سنة ١٩٠٢. ولقد اهتم فى بدء حياته بعلم البيولوجى Biology؛ حيث كان يدرس فى كلية امهرست Amherst. وقد اتصل بعلماء الأنثروبولوجيا الوظيفية Anthropologieal Fantionalism فى مدرسة لندن الاقتصادية أمثال مالينوفسكى Malinowisk الذى أثار فيه الاهتمام بالمدرسة الوظيفية، كما درس على أيدى علماء الاجتماع الإنجليزى أمثال هوبهوس Hobhouse وجنزبرج Ginsberg. وعندما اتجه إلى ألمانيا ليدرس فى جامعة هايدلبرج التى حصل منها على درجة الدكتوراه. تأثر بأفكار علماء الاجتماع الألمان أمثال: فيبر Weber وزمبارت Sombart. ثم عاد إلى الولايات المتحدة وعمل مدرسًا فى كلية امهرست، ثم انتقل إلى جامعة هارفرد، وانضم إلى قسم الاجتماع، وابتدأ من هنا تاريخه فى علم الاجتماع. وقد عاصر بارسونز سنين الانطلاق فى المعدلات العالمية للصناعة الأمريكية، كما عاصر سنين الأزمة الاقتصادية العالمية (١٩٣٠-١٩٣٤م).

ولقد كان بارسونز غزير الإنتاج العلمى فقدم للمكتبة الاجتماعية مؤلفات كثيرة، أهمها:

١- بناء الفعل الاجتماعى وصدر سنة ١٩٣٧.

«The Stucture of Social Action»

٢- النسق الاجتماعى وصدر سنة ١٩٥١ «System The Social».

٣- المجتمعات: تطورها ومقارناتها صدر سنة ١٩٦٦.

Societies: Evolulionary and Comparative Perspectives.

٤- نسق المجتمعات الحديثة صدر سنة ١٩٧١.

The System of Modern Societies.

obeikan.com

أهدافه:

كان هدف بارسونز الرئيسى هو بناء نظرية عامة عن المجتمع، نظرية يمكن أن تستخدم للمجتمعات بصفة عامة، على أساس أن المجتمعات هى جزء من كل الأنساق الحية. مثل هذه النظرية الوظيفية عن التنظيم الاجتماعى مؤسسة على رؤية بارسونز للكائن الحى أنه صانع القرار، مدفوعًا فى ذلك بعوامل معيارية وموقفية، أى أن للفعل الاجتماعى ثلاثة حدود (فاعل actor عوامل موقفية Situalional Factors، عوامل معيارية Normative Factors) ويلاحظ أن هذين العاملين الأخيرين (المعايير- الموقف) هى التى تبرز حاجات النسق، كما تعمل وظيفيّاً على فهم السلوك الإنسانى، وأكثر من ذلك أنه طبقًا لهذه النظرة، طالما أن المجتمعات تمتلك صفات عالمية، فإنه من الممكن عمل نظريات يمكن أن تستخدم لكل المجتمعات فى تطورها ونموها[١].

وهكذا حاول بارسونز عمل نظرية خاصة عن المجتمع والتطور الاجتماعى. ويلاحظ أنه كان يعيش فى ظل النظريات البيولوجية وخاصة التى تأخذ بفكرة النسق، وكذلك كان متأثرًا بالوظيفية الأنثروبولوجية، وكذلك علم اجتماع فبر Weber. وهكذا جاءت نظرية بارسونز ذات أساس بيولوجى وظيفى بنائى، والتى فى مضمونها تعتبر نسقية وتوازنية وتطورية. وقد استخدم المنهج التاريخى والاستدلال والقياس المنطقى.

وافترض بارسونز أن نظريته (عند مستوى معين هى نسق من القضايا الاستدلالية) مؤسسة على (نظرية الأنساق الحية عامة)[٢]. كما افترض أن نظريته هذه ملائمة (لمعالجة الأنساق الأكثر تعقدًا عن طريق التوليف بين العناصر الأكثر بساطة وأولية عند مستويات متباينة)[٣]. (وهكذا تأخذ دراسة إضافية للحقيقة الاجتماعية).

---

(1) Parsons. T.: "The System of Modern Societies"
Prentic-Hall, Englewood Cliffs. N. J. 1971. P. 1.

(2) Parsons. T.: "Some Problems of General Theory in Sociology P. 42.

(3) Ibid.: P. 35.

obeikan.com

الأسلوب الذى استخدمه بارسونز ليوثق تطور المجتمع يتكون من المزاوجة بين الخطة النظرية وتقارير الحقائق التجريبية التى اختارها ليثبت ويؤكد التفسير النظرى[1].

وبجمع هذه النقاط السابقة معًا يمكن بسهولة النظر إلى منهج بارسونز على أنه استدلال تاريخى عن نماذج العلاقات المجتمعية مؤسسة وقائمة على المناظرة البيولوجية التى درست بدقة وإتقان كبير، وعمل على تأييدها وإثباتها بواسطة المزاوجة والمطابقة بين الخطة النظرية والحقائق التجريبية.

بهذا الأسلوب وصل بارسونز إلى نظرية بنائية وظيفية متقنة ومحكمة للمجتمع، وذلك من خلال التعريف البيولوجى للحقيقة الاجتماعية.

نظرية النسق الاجتماعى

كان بارسونز غزير المفاهيم، فقد صاغ فيضًا من المفاهيم، حتى أن أشد الصعوبات التى يعانيها القارئ لمؤلفات بارسونز هى كثرة المفاهيم التى ابتدعها. وعلى أى حال سنحاول فى هذا المقام أن نركز على أهم المفاهيم التى تساعد على فهم نظرية بارسونز، أما لو حاولنا أن نذكر كل ما صاغه بارسونز من مفاهيم فهى تحتاج إلى كتاب مستقل قائم بذاته. وسنحاول أن نقدم فكر بارسونز من خلال نظريته عن النسق الاجتماعى إذ أنها تتضمن فى طياتها تقريبًا معظم أفكاره عن الفعل الاجتماعى والأنساق الفرعية (المنظمات الاجتماعية).

أولاً: اعتبر بارسونز أن النسق الاجتماعى العام يوجد بذاته sui generis، بمعنى أن المجتمع يملك واقعًا وحقيقة اجتماعية مستقلة كنسق اجتماعى، عن وجود الأفراد.

ثانيًا: يبرز البناء الاجتماعى أو الأنساق الفرعية التى يتكون منها البناء (المنظمات organizations، عددًا من الوظائف الأولية المهمة وتتكون هذه الوظائف من:

أ- التكامل integration بمعنى أن النسق يعتمد على مجموعة من المعايير التى تربط الفرد بالمجتمع فينتج التكامل المعيارى normative integration فى نسق المجتمع العام ككل.

(1) Parsons. T.: "The System of Modern and Societies" Ibid.: P. 138.

كما ينصب التكامل داخل الأنساق الفرعية على العلاقات التى تتم داخل النسق الفرعى. ويصبح النسق متكاملاً إذا تحقق التوازن بين ثلاثة عناصر وهى: الوسائل الثابتة (المكانة والدور)، والأهداف الشخصية للفاعل التى يريد تحقيقها من اشتراكه فى هذا النسق (مثل المركز الاجتماعى، الأمن. . . إلخ)، وأخيرًا الأهداف التى وجد من أجلها النسق- أى الإنتاج.

وحتى يكون الفاعل متكاملاً فى البناء الاجتماعى يعمل النسق على أن تتضمن عملية التنشئة الاجتماعية لأعضائه غرسًا للأدوار فى شخصية الفاعلين حتى تقترب من خصائص المكانات الموروثة، فيحدث استدماج الفاعلين للأدوار، ومن ثَمَّ ينجز الدور على أكمل وجه بل وبرضى وسعادة[1].

ب- **نمط المحافظة** Pattern maintenance ويعنى به أن النسق بما يتضمنه من معايير وقيم لها عموميتها، يؤدى إلى المحافظة على نمط التفاعل فلا يخرج أو ينحرف عن حدود النسق.

ولكن النسق الاجتماعى العام يتضمن إلى جانب هذه المعايير ذات العمومية، معايير خاصة بجماعات اجتماعية أو أنساق فرعية مما قد يؤدى إلى وقوع الصراع بين هذه الجماعات أو الأنساق الفرعية أثناء تفاعلها داخل النسق العام، ونفس الشىء قد يحدث داخل بناء النسق الفرعى أى بين الوحدات المكونة له. ومن ثَمَّ فإن وظيفة نمط المحافظة سواء فى المجتمع العام أو الأنساق الفرعية، العمل على المحافظة على عملية التفاعل فلا تخرج أو تنحرف عن حدود النسق، وذلك بواسطة ما يتضمنه المجتمع العام من معايير وتتم لها صفة العمومية ويمتثل لها كافة أعضاء المجتمع. ونفس الشىء بالنسبة للنسق الفرعى فإنه وإن كان يتضمن وحدات متباينة ذات معايير متباينة فإنه أيضًا يتضمن معايير يمتثل لها كافة أعضاء النسق الفرعى (قوانين ولوائح المنظمة مثلاً) وهذا ما يضمن إدارة وحفظ التوتر والصراع فى داخل حدود النسق ومن ثَمَّ يتوفر الاستقرار للنسق.

(١) لمزيد من الاطلاع يرجع إلى كتاب البناء الاجتماعى (المكانة والدور) للمؤلف والناشر.

obeikan.com

وتتضح العلاقة بين الوظيفة الأولى (التكامل) والوظيفة الثانية (نمط المحافظة) من أن كل منهما يعتمد على فكرة المعايير ومدى تشرب وتمثل أعضاء النسق لمعاييره، فكلما تشرب وتمثل الأعضاء معايير النسق كلما قل التوتر والصراع وزاد التكامل سواء فى داخل النسق الفرعى أو بين الأنساق الفرعية فى المجتمع العام.

جـ- التكيف adaptaion ويعنى أن كل نسق اجتماعى عليه أن يتكيف مع البيئة الاجتماعية والمادية التى يوجد فيها. فالنسق الاجتماعى العام القومى عليه أن يتكيف مع المجتمع الدولى، كما يعنى التكيف أيضًا أن يتكيف كل نسق اجتماعى فرعى داخل البناء الكلى، أى المجتمع، أى أن أهم عمليات التكيف هذه هى التكامل مع الأنساق الفرعية الأخرى، بمعنى أن تصبح الوظيفة الأولية للبناء الفرعى هى التكيف مع البيئة المحيطة به، ولكى يستطيع بل ويصبح من السهل عليه تحقيق هذا الهدف هو محاولة سيطرته على البيئة الخارجية (بواسطة التكنولوجيا مثلاً).

وأيضًا تتعلق وظيفة التكيف بالعضو الفاعل للسلوك والدور الذى يشغله، وتفاعله مع النسق الاقتصادى بمعنى محاولة العضو التكيف مع البيئة الخارجية.

د- تحقيق الهدف Goal attainment، ويقصد به أساليب الأفراد الفاعلين من أجل تحقيق الهدف، بمعنى أن الأفراد أثناء إشباعهم لحاجاتهم يختلفون من حيث مكونات شخصية كل منهم، فنمط الشخصية يختار، بين البدائل المتاحة فى النسق الثقافى، الأسلوب المتفق مع نمط الشخصية للحصول على الهدف.

وهذه البدائل عبارة عن خمسة بدائل سماها المتغيرات النمطية:

١- العاطفية فى مقابل الحياد العاطفى: أى أن الفاعل إما أن يسعى إلى إشباع حاجته مباشرة وذلك هو النمط العاطفى، أو أن الفاعل يجبره الموقف على التخلى عن إشباعاته وهذا النمط يسمى نمط الحياد العاطفى.

٢- المصلحة الذاتية فى مقابل المصلحة الجمعية. قد تسمح المعايير الاجتماعية فى موقف ما بسعى الفاعل وراء مصالحه الذاتية، وقد تحرم فى مواقف أخرى ذلك وتدفعه نحو تحقيق المصلحة الجمعية.

obeikan.com

٣- العمومية فى مقابل الخصوصية، ويعنى بالعمومية القيم التى على درجة كبيرة من العمومية، أى لا تقتصر على جماعة من الجماعات بل يشترك فيها معظم أعضاء المجتمع، بينما يعنى بالخصوصية تلك المواقف التى يكون الفاعل فيها مشتركًا معه أحد أعضاء جماعته أو جيرانه. فيبدو واضحًا فى مثل هذا الموقف أن أنواعًا من القيم الخاصة بجماعة الجيران ستلعب دورًا رئيسيّاً فى اختيارات الفاعل.

٤- النوعية فى مقابل الأداء، وكان بارسونز يسميها أولاً الوراثة فى مقابل الاكتساب ويعنى بها تلك المعالجة الأولية لشىء على أساس ماهيته فى حد ذاته أى حقيقة مواصفات الشىء، أو أن يكون الفعل على أساس تحقيق أهداف معينة موضوعة وهذا هو الأداء.

٥- التخصص فى مقابل الانتشار. بمعنى أن العلاقة إما أن تكون محددة نوعيّاً فى مجالها بحيث لا يكون هناك إلزامًا على الفاعل أكثر من تلك الحدود، أو تكون العلاقة غير محددة ذات مجال واسع، بحيث تتجاوز الالتزامات الحدود المرسومة والمتوقع من الفاعل إتيانها.

ثالثًا: ويتركب النسق الاجتماعى بدوره من أربعة أنساق فرعية:

أ- المشاركة المجتمعية Sociatal communty، ويعنى بها تكامل المعايير integrative noms.

ب- نمط المحافظة ويعنى به تكامل القيم.

جـ- السياسة polity وتستخدم للحصول على الهدف أو تحقيقه.

د- الاقتصاد economy وتستخدم للتكيف.

وبصفة عامة تكون البؤرة الرئيسية للنسق الاجتماعى (طبقًا لرأى بارسونز) التكامل الداخلى والتكامل المعيارى، بينما تصبح أسس المجتمع هى مستوى الإشباع والاكتفاء الذاتى بالنسبة لبيئاتها[1].

(1) Ibid.: P. 11.

هذه النظرة للمجتمع أقامها بارسونز على أساس الطبيعة الجوهرية للأنساق الحية على كل مستـويات التنظيم والتطور والنمو، مع الادعاء بأن هناك استـمرارية قوية أكثـر من فئة الأنساق الحـية[1]. وهكذا يبدو الاتجاه البـيولوجى فى نظرة بارسونز للمجتمع.

وأكثر من ذلك، فى خط متوازى مع هذه المناظرة بين النسق البيولوجى والنسق الاجتماعى، يعتبر بارسونز أن أسـاس المجتمع هو الميل نحو التوازن أو الانسجام. العـمليات الرئيـسيـة فى داخل هذا الميل هى تلك التى تربط وتعـمل على تداخل الأربعة أنساق الفرعـية للفعل. وتعمل على تخللها المتبـادل وتشابكها وتعمل على غرس الظواهر الثقافية والاجتماعية فى الشخصية، وأخيرًا تأسيس Institutionali-zation أن العناصر المعيـارية كبناءات. بمعنى أن العناصر المعيارية من كـثرة ممارسة مظاهرها الوظيفية لمدة طويلة، تتـأسس -أى تتحول إلى نظام، وتصبح على درجة عالية من الـتنظيم ومن ثَمَّ تتطلب تطابقًا دقيقًـا مع توقعات الوظيفـة، ذلك لأنها تتضمن درجة عـالية من التقنين، حتى لا تترك لأداء الـوظـيـفـة مـجـالاً للـصدفة أو الاجتهادات الفردية.

إذن يكون بين أيدينا أشخاصًا قد غرست فيهم الظواهر الثقافية والاجتماعية أى استدمجـوا الأدوار الاجتماعية، أى مؤهلون لأدائها على أكـمل وجه، ومن ناحية أخرى أدوارًا اجـتماعـية على درجة عـالية من التنظيم والتـقنين. عند ذلك يمكن اعتـبار الـنسق الاجتـماعى على درجـة عاليـة من التكامل وموجـه نحو الـتوازن Equilibrium-orianted.

وهذا النسق لا يمكن النظر إليه على أنه ساكن static، إذ أنه يمتلك قدرة فائقة على التكيف للتطور والنمـو بطريقة تؤدى إلى مزيد من تحـقيق الهدف (حـاجات جديد) للـمجتـمع ككل، وفى نفس الوقت وبالتـوازى زيادة فى التكامل الداخلى للمجتمع.

(1) Parsons. T.: "Some Problems of General Theory in Sociology in Tiryakian (eds) Theoretical Sociology" Appleton Centure Crofts. N. Y. 1970. P. 35.

obeikan.com

وتصبح العمليات الرئـيسية للتغيرات تتكون من الفـروق والاختلافات أى المزيد من التقسيم أو التخصص فى البناءات الوظيفية Functional Structure، ومزيد من الحرية للوحدات الاجتماعيـة من منابع القيود، وإدخال وتضمين بناءات جديدة فى النسق المعيارى، ومـزيد من عمومية القـيم، أى نمو أنساق القيم إلى عموميـة أكثر من أجل المحافظة على التكامل أثناء عملية التطور[1].

●●●

(1) Parsons. : "The System of Modern Societies"P. 26, 27.

obeikan.com

ولتر بكلى
WALTER BUCKLEY
(١٩٢٢ - ٢٠٠٦)

ولد بكلى سنة ١٩٢٢ وتعلم فى جامعة براون Brown ثم جامعة وسكنسن Wisconsin. وعمل فى جامعات مختلفة منها جامعة كاليفورنيا California وكان اهتمامه الأولى ينصب على علم الاجتماع، والتدرج الاجتماعى Social stratification، والحراك الاجتماعى Social mobility. وكتب فى هذه المواضيع مقالات عديدة فى معظم الصحف العلمية، ولكن يعتبر أهم ما قدمه فى مجال النظرية كتابه «علم الاجتماع ونظرية الأنساق الحديثة «Sociology and Modern System Theory» .

أهدافه:

كان أهم أهداف بكلى استخدام منظور نظرية الأنساق الحديثة لعلم الاجتماع فى محاولة تنمية إطار عمل من المفاهيم عن الحقيقة السسيوثقافية Socioculture يتميز بمزيد من الديناميكية. ذلك أن بكلى رأى أن النظريات الموجودة تركز على النماذج الميكانيكية والعضوية، فمن ثَمَّ حاول بكلى الانتفاع بديناميكيات تحول المعلومات وهى أسس الدراسة السيبرناتيكية Cybernetic approach لتنمية نظرة جديدة عن العمليات الموجهة للتنظيم الاجتماعى، وهذه الدراسة لها ملامح معينة تشترك مع الملامح العامة للبنائية الوظيفية.

نظريته عن الأنساق

افترض بكلى Buckkley أن دراسة الأنساق تنصب على مجموع العمليات الضرورية كوظيفة لعمليات التغذية Feedback المحتملة سواء الإيجابية أو السلبية التى صهرتها القرارات المنتخبة وجعلتها وسطًا، أو اختيارات الأفراد أو الجماعات المتضمنة مباشرة أو غير مباشرة عند اتخاذ القرار[1]. وطبقًا لهذه

(1) Buckley, W.: "Sociology and Modern Systems Thoery". Prentice-Hall, Englewood Cliffs. N. J., 1967, P. 80.

obeikan.com

النظرة يصبح التنظيم حالة وقتية، تعتمد على خواص التغذية بالمعلومات Information Feedback وصنع القرار عند لحظة معينة من الزمن.

وباستخدام هذه النظرة فى علم الاجتماع، قسم بكلى Buckley المجتمع إلى قسمين رئيسيين، البناء Structure والعمليات Process.

الأول يتكون من البناء على مستويين، البناء السيكولوجى Psychological structure والبناء السسيوثقافى Sociocultural structure.

وطبقًا لرأى بكلى، يتكون النسق السيكولوجى Psycological system من أربعة عناصر رئيسية:

أ- الفرد البيولوجى Biological individual.

ب- الأشياء البيئية موضع اهتمام الفرد.

جـ- فرد آخر.

د- الاتصالات والمعلومات المتبادلة.

هذه العناصر الأربعة تمثل نسق مركب متكيف، وهذه العناصر الأربعة كنسق من العناصر المترابطة والمتشابكة تمثل نسق اتصالات ضرورى وديناميكى، والذى يعتبر أساس التنظيم الاجتماعى عند المستوى السيكولوجى.

وعند المستوى السسيوثقافى، عمل بكلى محاولة للوصول إلى المستوى الأمثل من الاستقرار والمرونة من أجل التكيف مع أنساق البيئة. وهناك خمسة عناصر رئيسية فى عملية التكيف هذه.

أ- منبع لتقديم التنوع فى النسق.

ب- المحافظة على مستوى أمثل لكل من توترات النسق وإشباع العضو.

جـ- أسلوبان -أى خطان- من شبكتين للاتصالات مع البيئة، أحدهما لتحقيق الهدف والحصول عليه، والثانى لتوفيق وملاءمة أنساق النظم الاجتماعية الرئيسية مثل: (العلم، التكنولوجيا، الدين).

obeikan.com

د- نسق لصنع القرار.

هـ- ميكانيزم لنشر المعانى ورموز الأنساق ومجموعة الأخبار.

فى داخل هذا البناء كلما زاد ارتفاع المستوى كلما كان الاعتماد أكبر على الاتصالات من الاعتماد على صلة الطاقة. وهكذا يقوم التنظيم على مجموعة من القرارات تعتمد على تغذية بمعلومات معينة وفى لحظة معينة من الزمن.

العملية فى داخل نموذع الأنساق تتكون من انفتاح، ومدد معلومات، ومصادر للتغذية، وهدف، وعمليتان رئيسيتان:

أ- Morphostasis، شكل من العمليات الحافظة على التكيف بين المستوى السسيوثقافى والبيئة.

ب- Morphogenesis، ويعنى عمليات تتجه نحو تنقية النسق أو تغييره.

هذه العمليات تعتمد على عناصر فى عملية التكيف عند المستوى السسيوثقافى مثل (التنوع، والتوتر، والنظم... إلخ).

ولتوضيح ديناميكيات النسق، استخدم بكلى أمثلة مثل عمليات نظام المفاوضة Negotiated order، وحل توترات الدور، وصنع الدور.

وهكذا يمكن القول أن بكلى قدم نمطًا سيبرناطيقى للوظيفة البنائية. وبتطبيق نظرية الأنساق فى السسيولوجيا، اعتبر بكلى أن المجتمع مجموعة من الأنساق السيكولوجية والسسيوثقافية تقوم على أساس عملية التغذية بالمعلومات. هذه الأنساق الفرعية تتركب من بناء عملية، توازن وتطور، محافظة وتغير، وهى متكيفة وتحاول الوصول إلى المستوى الأمثل من الاستقرار والمرونة.

مثل هذا النموذج واضح أنه متوازى مع عمل بارسونز، فهذا النموذج يركز على الفرد البيولوجى، والحصول على الهدف، والاتصالات، والتكيف، والاستقرار، والنظم، وميكانيزمات النشأة الاجتماعية، وحفظ النسق تمامًا مثل

obeikan.com

التطور، والفرق هنا يكمن فـى الوظائف الأساسية كـونها سبرناطيـقية أكثـر منها بيولوجـية، بينمـا اعتبـر التنظيم الاجتـماعى وقتى وديناميـكى أكثـر منه مستـقراً وساكنًا.

كما يلاحظ أن عمليات الوحدات الكبيرة Macroscopic مثل Morphostasis وMorphogeness ليست واضحة تمامًا من حيث تعريفها وأسسها. وكذلك معظم الأمثلة التى ضربها بكلى عن الديناميكية كلها من نوع الوحدات الصغيرة Microscopic.

***

obeikan.com

إدوارد تریاکیان
EDWARD TIRYAKIAN

[- ١٩٢٩]

تعلم تریاکیان فی جامعة برنستن Princeton ثم جامعة هارفرد Harvard. وعمل فی أقسام الاجتماع فی جامعات برنستن وهارفارد ودیوك Duke. وكان محور اهتمامه هی العلاقة بین الوجود وعلم الاجتماع، والتطور والتغیر فی الأنساق الاجتماعیة. وكذلك النظریة الاجتماعیة.

وفی هذا المقام نحن نهتم بما قدمه من محاولة جادة فی إقامة نظریة ظاهراتیة (فینومینولوجیة Phenomenological theory) للوظیفة البنائیة[١].

أهدافه:

حاول صیاغة نظریة ظاهراتیة عن النظام الاجتماعی من أجل الكشف عن الأبعاد المؤثرة فی الوسط الثقافی للحقیقة الاجتماعیة. وبذلك یجعل من الممكن إیجاد الضبط المناسب حتی یمكن أن یؤمن تغیراً سسیوثقافیاً تقدمیاً [٢].

نظریته الظاهراتیة

فی تضاد مع الوظیفیین السابقین، افترض تریاكیان وجهة نظر تختلف تمامًا عن سابقیه فهی نظرة فینومینولوجیة عن البناءات الاجتماعیة، فهو یعاملها (كظواهر معیاریة لضمائر ذوات متداخلة، والتی تصنع إطارا للأفعال الاجتماعیة فی مجال اجتماعی)[٣]. ویلاحظ أن هذه الفكرة تشبه فكرة الضمیر الجمعی عند دوركیم مع تحویر فیها، مما یكشف عن تأثر تریاكیان بدوركیم.

---

(1) Tiryakian. E. A.: "Structural Sociology" in Mckinney and Tiryakian (eds), Theoretical Sociology, Perrpectives and Developments" Appleton Century Crofts, New York, 1970. P. P. 111- 135.

(2) Ibid.: P. 135.

(3) Ibid.: P. 115.

obeikan.com

وهكذا يصبح البناء الاجـتماعى عند تریاكیان عـبارة عن بناء داخلى، بمعنى أنه داخل عقول الأفراد أى جزء من تركيب شخصيتهم، **وكائن** أى موجود، **ومعيارى** Normative بمعنى أنه يتكون من مجموعة من المعايير التى ارتضتها ضمائر الذوات المتفاعلة. ومن ثَمَّ يقدم هـذا البناء الاجتماعى أسس تعريفات الحقـيقة عند الأفراد والجماعات، بمعنى أن الأفراد والجماعات يرون الحقـيقة الاجتماعية من خلال هذا البناء المعيارى.

اعتبر تریاكـيان (أى الظواهر الاجتماعية لهـا مظهر الإتيان . . . . .) وهو يعنى أن الظواهر الاجتمـاعية ليست لها صـفة الدوام السرمدى، ولكنها فى حـالة تغير دائم، فمـا هو كائن منهـا آخذ فى الزوال ويحل مكانه بالتـدريج ظواهر جديدة، (وهذه الظواهر تستـمد واقعيـتها وظهـورها من أرضية موجـودة من الإمكانيات، وتلك الأرضية هى التى نشير إليها كبناء اجتماعى)[1].

الانتظام institutionalization أو التشكل Formalization تمثل العملية التى بها تطفو الظـواهر الاجتمـاعية على السـطح من أرضية الإمكانيـات، وتصبح مـرئية وتنتظم فى البناء الاجتماعى.

واعتبـر تریاكيان أن هذه الأرضية من الإمكانـيات مقسمة إلـى منطقتين الأولى المقدس Sacred والثانية العلمانى Secular وقد نظمت المنطقتان فى توازن متناقض Antithetical equilibrium بمعنى كلما زاد العلمانـى تناقص المقدس بنفس القدر، والعكس صحيح.

والمقدس عند تریاكيان يمثله المعتقدات والممارسات الدينية بينما العلمانى يتركب من المناشط الاقتصادية والسياسية أو مناشط تحقيق الأهداف.

وتبعـا لذلك افترض تریاكـيان أن النظام الاجتـماعى ينبعث كـترتيب وتعقـيد للجانب اللاعـقـلـى Irrational مـن المقدس. وهـى العـملية البنائية الاجتمـاعية Social Structuration[2].

(1) Ibid.: P. 118.

(2) Ibid.: P. 123.

obeikan.com

واعتبر أنه عند مستوى الوحدات الكبرى macroscopic تمثل الثقافة مجموعة من الرموز المتكاملة والتى تؤثر فيها ديناميكيا عمليات البناء والانحلال وذلك عند ظهور عناصر جديدة على السطح من أرضية الإمكانيات. وهذا أثناء حركة المجتمع من المقدس نحو مزيد من الترشيد للجانب اللاعقلى.

وهكذا يمكن القول أن تریاكيان حاول عمل علم اجتماع بنائى Steuctural sociology، دراسة نظرية تعتبر تحليلا ديناميكيا واسعًا للأنساق الاجتماعية، والتى اعتبرها نقطة البداية إذ هى تحليل الجواهر الأساسية للمجتمع كله كما هى موجودة فى إطار عملها الثقافى، والتى تعبر عن ماهية وواقعية تلك الإمكانيات المنبعثة منها)[1].

وبذلك اعتبر تریاكيان أن المجتمع نسق ثقافى ديناميكى رمزى موجود فى داخل الفرد، وهذا المجتمع فى تحول دائم من المقدس فى جانبه اللاعقلى إلى العلمانى فى توازن متناقض. هذا النسق من القوى يخضع لتأثير البناء الاجتماعى والأخلاقيات والترشيد. وكلها محتواه فى حدود نسق ثقافى متكامل.

وهكذا يمكن رؤية أن مثل تلك الدراسة من نوع دراسات الوحدات الكبرى ونسقية وتطورية. وإن كانت هذه الدراسة افترضت أن الوظائف الأساسية للمجتمع ظاهرتية وليست بيولوجية كما عند بارسونز وبكلى. وفى الحقيقة قرر تریاكيان بوضوح (أنا أرى دراستى تجديد للتحليل البنائى الوظيفى)[2].

***

(1) Ibid.: P. 131.

(2) Ibid.: P. 131.

تحليل

وهكذا يمكن اعتبار هذا النمط من الوظيفية البنائية يتكون من النقاط الآتية:

١- يهدف إلى عمل نظرية عامة عن التطور الاجتماعى من أجل الوصول إلى أعلى ضبط وترتيب للتغير الاجتماعى.

٢- يعمد إلى اعتبار المجتمع نسق وإلى تقسيمه إلى أنساق فرعية.

٣- يعتبر نمط ظاهراتى معيارى للوظيفية البنائية.

٤- يحاول عمل تنميط للتطور الاجتماعى.

إلا أنه يؤخذ على هذه النظرية بعض الملاحظات الآتية:

١- المفاهيم الظاهراتية مثل: أرضية الإمكانيات، والمقدس، والعلمانى والبنائية والانحلالية تعريفاتها غير واضحة.

٢- الأمور الاجتماعية التى تعمل وراء هذه الظواهر غير واضحة التحديد والتعريف.

٣- خواص التوازن المتناقض أيضًا غير واضحة.

٤- عمليات البنائية والترشيد بالمثل غير واضحة ومبهمة.

وباختصار يمكن القول أنه بينما نظرية تریاكيان تسترعى الانتباه إلا أنها تتطلب مزيدا من التوضيح، ومع ذلك فإنها تقدم أفكارا جديدة عن أنماط الخارجية والرسمية التقليدية، وإن كانت فضفاضة كما بينا.

***

obeikan.com